كلمة تصدير

بين الحربين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها ، وعملت فيها السياسة غاية عملها ، وأقحمها الدعاة من مباحث العلم والتاريخ فى غير موضعها .

وقد كانت للإسلام كلمة فى إنصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة الحضارة العصرية والعلم الحديث ، وكان فى صحابة النبى ﷺ رجل أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول . فكان أثيراً عنده وعند الخلفاء وجلة الصحابة والتابعين .

فالكتابة عن بلال رضى الله عنه فى هذا العصر تقع من سلسلة العبقريات والسير الإسلامية فى موقعها وتصادف موعدها من الزمن فى أعقاب الحرب العالمية القائمة .

ولهذا كتبت هذه الصحائف فى سيرة داعى السماء .

عباس محمود العقاد

سنة ١٩٤٥

مسألة العنصر

مسألة العنصر – أو الجنس – مسألة اجتماعية كثيرة الورود على ألسنة المعاصرين وأقلامهم . ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التى وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين فى المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race فى لغتهم إلى أصل سامى يرجحون أنه هو اللغة العربية . ويعتقدون أنها مأخوذة من كلمة الرأس التى كانت تميز بين رءوس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله فى بداية أمره ، ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره . فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها إلى الواشجة الأولى التى نشأت فى مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة الهمجية ، ثم كانت سبباً إلى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصداق ذلك فى القرآن الكريم حيث جاء من سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . . » (آية ١٣)

فكانت الواجبات التى تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التى تعلّمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولايعم غيرهم كائناً ما كان معدنه ومدار الفخر فيه . فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التى يسكنونها وصنوف المطاعم التى يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازه على غيره . ويزيده

إمعاناً فى عادة التفاخر والمباهاة أن تتاح له فرصة الغلبة والاستعلاء فترة من الزمن . فإن كانت الغلبة قائمة حاضرة فهى آية الفخر وحجة المباهاة . وإن كانت غابرة دائرة فهى عنده علامة على عراقة أصله وحداثة غيره . وأنه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة وإن خدمته الحظوظ والمصادفات فى حاضر أمره .

فلم تعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنشأتها وبيئتها وبلادها . والذى قال :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة   وأهلى وإن ضنوا على كرام

قد جمع هذه الحقيقة من جميع وجوهها وهو يدرى أولا يدرى . فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ولا أن يكون الآل أكرم الناس ليفخر بهم الرجل الذى ينتمى إليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم . فإنه ليعظّمهم ويبجلهم فراراً من المهانة التى تصيبه إذا تقاصروا عن شأو العناصر الأخرى فى التعظيم والتبجيل . . . فهو فاخر بهم إن عظموا مساهمة منه فى فخارهم . وفاخر بهم إن هانوا دفعا للهوان عنه إذا اعترف بهوانهم . ولا حساب للبحث أو للرأى فى الحالتين إلا بعد حساب العاطفة والشعور .

كان المصرى القديم يؤمن بأنه هو الإنسان الكامل ثم تتلاحق الشعوب بعده إلى أن يأتى أبناء اليونان فى المرتبة السادسة .

وكان اليونانى القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المهذب ومن عداه برابرة لايدركون مكانه من الفهم والحضارة .

وكان العربى القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المبين الكريم ومن عداه « أعاجم » لايفقهون مايقال ولا يدينون بدين المروءة والأحساب .

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين . بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين ينظر إلى نظائرها وإن تلاقت جميعا فى أصل قريب من الأحساب والأنساب .

وبقيت هذه الشنشنة بين أمم الحضارة فى العصر الحديث فاعتز بها الأوربيون على أبناء القارات الأخرى ، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جاره بالعادات والأخلاق والمآثر وإن تقاربوا فى السلالة واللغة والعقيدة فليس أشد تفاخراً بين الأوربيين من الطليان والإسبان والفرنسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية وبعقيدتهم إلى المسيحية الرومانية وبعناصرهم الى مزيج متقارب من السلالات ، ولكنهم تعلموا – بوحى المصلحة المتفقة – أن يجمعوا فخرهم كله إلى فخر واحد يتقارب فيه الأوربيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء إلى القارة المجتباة بين القارات . وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشر بها الأوربيون من عداهم من الشعوب الإنسانية ، وسموا تلك الرسالة « عبء الرجل الأبيض » أو أمانة الرجل الأبيض ، أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقاء .

وصدق العالم الإنجليزى جوليان هكسلى حين قال إن هؤلاء الدعاة مسبوقون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح . فقد سبقهم « أشعياء » من أنبياء إسرائيل فقال فى إصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعى لى أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد . الرب من البطن دعانى ، من أحشاء أمى ذكر اسمى . وجعل فمى كسيف حاد . فى ظل يده خبأنى وجعلنى سهما مبريا . فى كنانته أخفانى . وقال لى أنت عبدى إسرائيل الذى به

أتمجد. أما أنا فقلت عبثاً تعبت ، باطلا وفارغا أفنيت قدرتى . لكن حقى عند الرب وعملى عند إلهى .

« والآن قال الرب جابلى من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل . فأتمجد فى عينى الرب وإلهى يصير قوتى . فقال : قليل أن تكون لى عبد الإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظى إسرائيل ، فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض . هكذا قال الرب فادى إسرائيل . . . »

فرسالة الرجل الأبيض التى تمخض عنها القرن التاسع عشر كله لم تذهب بأصحابها إلى أبعد من هذا المدى الذى سبقهم إليه بنو إسرائيل قبل ميلاد السيد المسيح بسبعة قرون .

* * *

وظلت المفاخر العنصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التى لايرجع فيها إلى قياس منطقى ولا موازنة علمية. فكانت أشبه شىء بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وجيرانهم وبيوتهم التى يسكنونها ومدنهم التى ينشأون فيها وكل شىء يتصل بهم وتنعقد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم . وفحوى مفاخر الأجناس من هذا القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب . وليس هذا من القياس المنطقى ولا الموازنة العلمية فى شىء .

ثم اتسع نطاق البحث العلمى فى القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق بين الشعوب فى موضوعاته الكثيرة وجعل لها علماً خاصاً أو باباً خاصاً من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية .

وانتهى به البحث إلى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من

الأجناس التى ينتمى إليها شعوب البشر كافة . وهى الجنس القفقاسى أو الأبيض . والجنس الزنجى أو الأسود . والجنس المغولى أو الأصفر . والجنس الأسمر أو أهل الملايا . والجنس الأحمر أو سكان القارة الأمريكية الأصلاء .

واختصر بعضهم هذا التقسيم إلى ثلاثة أقسام فجعل الأجناس الصفراء والسمراء والحمراء فروعا من أصل واحد . وهو اختصار له سند معقول .

وقد عنى أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التى تورث وتنتقل مع الأجيال ، أى بالفروق التى يسمونها فروقاً بيولوجية دون غيرها من الفروق الاجتماعية التى تكسب بالقدوة والمحاكاة .

وتناول العالم اللغوى الألمانى ماكس موللر دراسة الأجناس من الناحية التى تعنيه وهى ناحية المقابلة بين اللغات . فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحياها من جديد بعد أن سبقه إلى استخدامها السير وليام جونس فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقرر أن لهجات اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد فى أواسط آسيا التى كان الأقدمون يعرفونها باسم « أريانا » وأنها كانت فى نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الأجناس البشرية . وكلا القولين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما أثبته جوليان هكسلى من كلامه عن الجنس فى القارة الأوربية .

وأحس العالم الألمانى الكبير أن دعوة الجنس الآرى ستخرج من حيز التفكير العلمى إلى ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من الخطأ فى تفسير كلامه وعاد إلى التحذير من ذلك فى شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أننى إذا ذكرت الآرية فلست أعنى

الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة . وإنما أرمى إلى قصد واحد وهو أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية . . ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع فى ذلك الخصائص التشريحية ، ولا أعنى أن أبناء السكنديناف ذوى العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا مقهورين ، ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذين تغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك . . وعندى أن عالم الأجناس الذى يتكلم عن العنصر الآرى والدم الآرى والعيون الآرية والشعر الآرى إنما هو فى خطيئته العلمية كاللغوى الذى يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أجرومية مستديرته على حد سواء » .

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال فى مذهب النشوء تتسع وتتشعب حتى عرض لبعض الباحثين فيه أن الأجناس البشرية تنتمى إلى أصول متفرقة لا إلى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وأن القردة العليا هى أجناس بشرية سفلى ، وأن المغولى والقرد المعروف بالأورانج نبتا من أصل واحد ، وأن الزنجى والغوريلا والشمبانزى تنتمى إلى أصل آخر ، وكان رأس القائلين بهذا الرأى عالماً ألمانياً من علماء الأجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Kiaatsch أستاذ هذا العلم بجامعة برسلاو الألمانية . فأعلن فى أوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما بدا له من الشواهد والملاحظات التى كشفت عنها مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الإنسان .

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرهما . بل كان كذلك قرن التوسع فى الاستعمار وتسخير

العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية . . . فظهر من الكتاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس اللون والعنصر ، وقام فى أوربا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الأجناس البشرية ومن يرد الفضل فى كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة إلى أصل الجنس الآرى المزعوم فى الشمال ، وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « ارثردى جوبينو » فى فرنسا وهوستون شمبرلين الإنجليزى المتجر من فى ألمانيا ، ولم تخل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة وهى ميدان نزاع بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين المهاجرين الأوربيين الذين يمتون بالنسب إلى أصول مختلفة . كالسكسون واللاتين وأمم الشمال والجنوب . فكان لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard وماديسون جرانت Madison Grant على رأس المبشرين بهذه العقيدة فى الولايات المتحدة ، ولم تكن كراهة الأجناس الملونة هى الباعث الوحيد فى نفوس هؤلاء إلى التبشير بمزايا الرجل الأبيض أو مزايا الجنس الآرى خاصة من بين الشعوب البيضاء . وإنما كانت كراهتهم للحكومة الحرة – أو حكومة المساواة بين الطبقات – باعثاً آخر إلى إنكار صفاء الشعوب التى سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الآرى أو الجنس الشمالى المجيد ، فكانت هذه النكسة مدرجة لها إلى النزول عن أوج السيادة والإذعان لشريعة المساواة .

ولاشك أن حروب نابليون بونابرت كانت لها يدقوية فى تمكين هذه النزعة بين الأمم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذى تدرأ العار به عن فخارها القومى فى مجال الصراع بينها وبين اللاتين أو بين أمم الشمال

وأمم الجنوب ، وقد كان نابليون قائد فرنسا اللاتينية فى صراعها مع الجرمان منحدراً من جنوب الجنوب بالقياس إلى القارة الأوربية . فكانت صيحة الفخار القومى التى تستثار بها الأمم الجرمانية إلى الوحدة هى تعظيم مزايا الجنس الشمالى الذى ينتمون إليه ، واتفق ذلك فى عصر البحث عن الأجناس وعصر النشوء والتطور وعصر السباق إلى الاستعمار وعصر الديمقراطية التى تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم ، فكانت صيحة التفوق العنصرى على أشدها بين الألمان ، وكادت عقيدة الجنس الآرى أن تنحصر فيهم بعد مولدها فى بلاد الإنجليز على لسان واحد منهم وهو العلامة ماكس موللر الذى سبقت الإشارة إليه ، ومن ثم ندرت دعوة إلى التفوق العنصرى لم تكن لها صلة بالثقافة الألمانية الحديثة من قريب أو بعيد .

* * *

وقد تعددت الأسباب التى ألهجت ساسة الألمان بعد الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ – ١٩١٨) بمسألة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام الشمالية ومالها من الرجحان على خلائق الله كافة من أوربيين وغير أوربيين ، سواء فى الزمن القديم أو فى الزمن الحديث .

فقد احتاج الساسة الألمان إلى محاربة المذهب الشيوعى فوضعوا بإزائه مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهى تعتصم بالخصائص القومية فى وجه الدعوة الدولية التى يبثها الشيوعيون ، وفاقا لعقيدتهم المعروفة ، وهى عقيدة الثورة على الأوطان والأديان .

ووافقتهم الخصائص القومية فى حربهم للشيوعيين من وجه آخر غير المقابلة بين المذهبين ، وذلك هو المقابلة بين عنصر السلافيين وعنصر

التيوتون الذى ينتمى إليه الألمان . فكانوا يقولون إنهم هم حماة الحضارة الأوربية من زحوف البرابرة التى تهددها من قبل آسيا فى الزمن الحديث .

واستغلوا دعوة العنصر الآرى استغلالاً غير هذا وذاك فى محاربة اليهود باسم الساميين .

واستغلوها مع هذا وذاك لاستنهاض نخوة الأمم الجرمانية بعد هزيمتها المنكرة فى ميادين القتال ، فنفخوا فى أوداجها أنها أهل للظفر – وليست بأهل للهزيمة – لأنها خلقت للسيادة وتنزهت فى سلالتها الآرية عن شوائب الأجناس ، وأدخلوا فى روعها أنها كانت وشيكة أن تظفر بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى .

فأصبحت دعوة العنصر هوساً جامحاً كهوس التعصب فى كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآرى المزعوم أنهم جعلوه فلسفة فى الحكم وفلسفة فى الأخلاق والفنون والآداب ، فكانوا يقولون إن الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومى كما تنبت الجوارح فى الأجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل فى تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هتلر ينادى فى كتابه « إننا معشر الآريين لانعرف الحكومة إلا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب » . . . فهى شىء لايدخل فى الإرادة ولا فى التربية السياسية ولا فى نظم التشريع والانتخاب .

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها – مع تلك البواعث النفسية والسياسية – مبلغاً لم يسبقهم إليه سابق فى عالم البحث ولا فى عالم الخيال . فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى

تلتقى بالقردة ولا يبعد أن تناسلها ، وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقى إلى الذروة العليا فى ذلك الترتيب ، وعادوا إلى كل رجل من أصحاب القرائح الخلاقة بين عظماء الأمم فألحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا إلى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضارة فنسبوه إلى شعبة آرية مقيمة فى موطنها أو مهاجرة إلى وطن من الأوطان ، فحصروا الخلق والسيادة فى الآرية المزعومة دون غيرها وجعلوا العناصر الأخرى جميعاً عالة على الآريين ينتفعون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين أو كارهين .

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب إلى الغلو فى إنكار خصائص الأقوام والأجناس ، وهم إذا غلوا فى هذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى إلى الإقناع من شفيع العنصريين .

وإنما نعرض للبواعث السياسية التى امتزجت بالحقائق العلمية فى مسألة الجنس والعنصر لأن الإلمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلمية من أخلاطها الغريبة ويرجع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول .

ومن الواجب أن نصغى أولا إلى دواعى التشكيك فى تلك الدعوة الجازمة وهى كثيرة ، فإنها على التحقيق تدعو الى الشك فى دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التى خيل إليهم أنهم يؤمنون بها ، لأنهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان .

فمن دواعى الشك فى العنصرية الآرية أن العنصر الآرى المزعوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذى

تخيلوه ، وإنما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم اليوم إلى سنخ واحد ، ولا يتشابهون فى الخصائص العنصرية إلا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم بلغة واحدة على تباين المواطن والألوان .

قال العالم الإنجليزى جوليان هكسلى فى كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوربية : إنّ دعاة العنصرية يتكلمون عن الجرمان والآريين وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق . وإنما المقطوع به أن هناك نموذجا بشريا يعرف بالنموذج الشمالى موزعاً بين الأقطار الشمالية فى أوربا من الجزر البريطانية إلى التخوم الروسية ، وإن هذا النموذج وهو على أقرب ما يكون إلى النقاوة والصفاء فى بعض الأقاليم السكندنافية لم ينسب إليه قط فتح من فتوح الحضارة أوكشف من كشوف العلم أو أداة من أدوات الاختراع التى اشتهرت فى التاريخ ، وقد روجعت مخلفات العصر الحجرى التى ترد الى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة فى بريطانيا العظمى فإذا هى تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها إلى شبه الجزيرة الايبيرية – التى نعرفها باسم الأندلس – ثم إلى فرنسا فالجزر البريطانية . ومن المحقق أن الخطوات الأولى التى خطاها الإنسان إلى الحضارة حين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواب قد تقدم بها فى جوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمراء التى لم تنسب إلى السلالة النوردية ، ومن المحقق كذلك أن مشاهير الجرمان أمثال جيتى وبتهوفن وكانت كانوا مستديرى الرءوس ربعة فى القوام ، وليس نابليون ولا شكسبير ولا أنيشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التى يزعمونها للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الأشقر والقوام

الطويل الرشيق لا يعرفان لزعيم من زعماء الدعوة النوردية أو الآرية المزعومة . فهتلر أسمر وجورنج سمين بادن وجوبلز قصير دميم وزعماء « الجنكر » من سكان ألمانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافيين والتيوتون ، وهم أكبر الدعاة إلى السيادة الجرمانية على الأمم قاطبة .

ويتفق علماء الأجناس ووصف الإنسان على توزع السلالات فى العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض فى عنصر أو سلالة . فالجنس الأبيض فى القارة الأوربية وما جاورها ينضوى إلى عنوان واحد ولكنه ينقسم إلى السلالات النوردية والألبية وسلالة البحر الأبيض المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنضوى إلى عنوان واحد ولكنها تنقسم إلى ليبين وإيبيرين وليجورين نسبة الى اسم جبال الألب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف إليهم البيلاسجيون Belasgian الذين ينعزلون وحدهم فى بحر « إيجه » على مقربة من اليونان .

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر ، يختلف فى بعض الصفات وإن تماثل فى اللون أو تقارب فيه . فقد عرفت القبائل السوداء فى أستراليا ولكنها تخالف القبائل الأفريقية فى الخصائص الوراثية ، بل يقع الخلاف فى بعض الملامح والأخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الأفريقية . أو أبناء الإقليم الواحد منها فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الأولين قصار وثابون مولعون بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون إلى الاستقرار . ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرون السودان الجنوبى وبعض أقاليم الصحراء إلى الشواطئ الغربية ، وهم جماعات

شتى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع مقيمين موادعين . وليست فوارقهم فى اللغات بأقل من فوارقهم الكثيرة فى الملامح والسمات والعادات .

* * *

وبعض هذه الشواهد المتواترة يقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال . ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفريع فى خصائصها ومزاياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك فى مزاعم العنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعا فى سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات .

ومن دواعى الشك القوية فى مزاعم العنصريين أن كثيرا من المزايا التى يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها إلى عواملها المحلية أو الاجتماعية التى لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية . ونعنى بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية .

فقد زعموا – مثلا – للسلالات الأوربية أنها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء و « التفلسف » المجرد الذى لا يرمى إلى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الأفراد أو ما تنتفع به الجماعات . وقالوا أن الشعوب الشرقية لا تحب المعرفة هذا الحب ولا تتجرد للمباحث الفلسفية هذا التجرد . ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه فى الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية . ودليلهم على ما يزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين .

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل فى سلطان الكهانات القوية وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطد وتبسط

يديها على العقول إلى جانب الدول العظيمة التى لابد من قيامها فى أودية الأنهار الكبيرة . فحيثما وجد نهر كبير فى صقع من الأصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الرى والزرع وتصون الأمن وتضمن سلامة المعاملات ، ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن لها بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة والتفرد بحق البحث فى العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير . وكثيراً ما تجتمع الوظيفتان فى شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « أنصاف الأرباب » فى التاريخ القديم . فإذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التى تتناول أصول الوجود حقا للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتسع الحرية للناس يثبتون فيها وينكرون كما تتسع لهم فى غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلا بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح للنظر العاجل فى النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الإنسانية .

وقد كانت أمم الشرق القديم دولاً لها كهانات قائمة قبل أن تظهر الفلسفة اليونانية بألوف السنين ، فامتد تفكير اليونان إلى محاريب الفلسفة التى كانت حرما منيعاً فى ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس . وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين . ولو انعكس الأمر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مراء .

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت فى أوربا حين توطدت فيها مثل ما صنعته الكهانات فى الشرق القديم . فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الأمم الأوربية ضرب الحجر على العقول فأحجم

الناس دهراً طويلا عن البحث المجرد والتفكير فى حقائق الوجود ، وبلغت الكهانة الأوربية على حداثتها ما بلغته كهانات الشرق بعد أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ .

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوربا أن الأوربيين يمتازون على الاسيويين والأفريقيين فى معدن الشجاعة والبطولة الحربية ، واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم فى معركة ماراتون ومعركة سلاميس .

فالواقع الذى أسفرت عنه دراسات الثقات من النقاد العسكريين المحدثين أن الفخار الوطنى قد لعب لعبته المعروفة بأخبار المعركتين فبالغ فيها جد المبالغة وأضفى عليها ثوبا من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ الصميم إلى حيز الملاحم الهومرية .

فلم يدر فى خلد « دارا » يوما من الأيام أن يستولى على أرض اليونان لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا يخشى منها الخطر العسكرى على دولته المترامية الأطراف . وانما عناه أن يؤدب أرتريا وأثينا لأنهما تجرأتا على معاونة اليونان الثائرين عليه فى آسيا الصغرى . واغتنم لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية فى أثينا أو قبل إنه تلقى من زعماء الشعب المتمرد وعداً بالانضواء إليه وخذلان أولئك المستبدين . فأخمد الثورة فى آسيا الصغرى ثم زحف على « أرتريا » فعصف بها وأرسل أهلها أسارى وسبايا إلى شطوط الخليج الفارسى يسامون فيها سوم الأرقاء .

ثم تقدم إلى أثينا وفى حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة إليه بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن فى حسبان الفرس ولا اليونان واتفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم

يشأ أن يطيل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يجد فى الأمر ما يستحق المطاولة والعناء .

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير .

شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ثم خرج زركسيس لقتال اليونان فى جيش ضخم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التى صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقاً له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جدا من قيادة نصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولأن الجيش كان مرتبطاً بمعونة الأسطول الذى يلازم الشاطئ ويحمل له المؤنة والعتاد ويتكفل بنقله فى المجازات البحرية ، فأصبح الجيش والأسطول معا مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيب علمه عن اليونان ، ولما التقى الأسطولان فى سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقاً للأسطول أيضا ولم تكن من مزاياه ومرجحاته . لأن المكان أضيق من أن يتسع لمناورات الأسطول كله ، ولأن زركسيس لم يتقدم إليه إلا لعلمه باختلاف قواد اليونان فى إدارة البحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن فى مجلس الحرب نية التراجع بمعظم السفن من سلاميس .

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة فى جانب اليونان ، وأصبح تموين الجيش الفارسى ضربا من المحال بعد ضياع السفن التى منى بخسارتها فى المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة فى المعركة البحرية وإن كان قد ظفر بالأثينيين فى المواقع البرية .

ولا شك أن الذى أصاب الفرس فى هذه المعارك قد كان يصيب

اليونان لا محالة لو أنهم كانوا فى موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل نقلهم وهو فى اختلاطه وتعدد أهوائه .

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف فى معدن القوم أو مناقب السلالة ، ولكنها اختلاف فى الأحوال والملابسات ، وخليق بالذين ينسون آفة الاختلاط فى الجيوش ويحسبون مغبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم أن يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعاً إلى العنصر الأوربى قد أصابتهم الهزيمة على أيدى الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم فى العدد والعتاد ، ولم تعوز الصليبيين فى تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس .

ومع هذا ألا يقول دعاة البدعة الآرية أن الفرس قديماً من سلالة الآريين وأنهم أقرب إلى أمم الشمال من يونان الجنوب ؟

إن العالم النمسوى فردريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل أوربا فى الزمن القديم ، ومن المفيد فى هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه فى كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثانى من « ساعات بين الكتب » . . . وهذا بعض ما جاء فيه :

« . . للزنوج أثر فى أوربا تدل عليه الجماجم التى وجدت فى ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا ومورافيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمانى سنوات فى أفريقيا الجنوبية . وقد بقى أثر للأقزام السود فى جبال الألب إلى عهد بلينى الذى تكلم عن هؤلاء الأقزام وعززت كلامه القصص والأساطير .

ويزعم شمبرلين أن عرفان حقوق الحياة هو مزية الآريين التى لا يعرفها الساميون فى الشرق لاستغراقهم فى المادة وتقديمهم المال والحطام على الأذهان والأرواح . فيجيبه الأستاذ هرتز بجواب مفحم هو المقابلة

البسيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابى فى محاسبة المدينين فاللوح الثالث من ألواح القانون الرومانى يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلا فى مدى سبعة وعشرين يوماً من يوم القبض عليه وتكبيله فى الحديد والحبال . وأما شريعة حمورابى فهى تقضى بأن يخدم المدين دائنه ثلاث سنوات ، والقانون يحميه فى خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق . زد على هذا أن الفرق واضح بين الشريعتين فى أمور أخرى : منها أن السارق المضطر معذور فى شريعة حمورابى . وهو غير معذور بحال من الأحوال فى شريعة الرومان ، وأن الأب الرومانى يجوز له أن يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الزوج البابلى لا يجوز له أن يقتنى السرارى بغير إذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الحط من دينه إذا نقصت غلة أرضه وليس فى الشريعة الرومانية شىء من هذا القبيل . وهكذا وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الحطام فى شريعة حمورابى ثم من شواهد القسوة وتقديم الحطام على الحياة فى شريعة الرومان .

ويرفع شمبرلين اليونان إلى السماء ويقول إن علومهم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها إلى طبيعتهم الآرية التى يمتازون بها على الآسيويين والساميين .

فيقول له هرتز إن أرسطو فى زمانه كان يطرى مواهب الآسيويين فى الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذى لا علاج له فى المعارف الفنية والسياسية لعلة الجو التى لا تبديل لها على تعاقب الأزمان ، ويقول هرتز أيضاً إن ثوسيديد المؤرخ اليونانى ، ذكر أن اليونان كلها كانت فى قبضة البرابرة ، وذكر هيرودوت أنه كان يسمع فى زمانه لغة البرابرة فى بعض

أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين – كرشمر وكيسلنج وفك – أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، وأن أسماء المواقع اليونانية لا ترد إلى مصادر من هذه اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الأرباب فيما يقول هيرودوت . والأقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل أسيوى سامى وأنه تعلم العلم فى البلاد المصرية ، وكذلك تتفق الأقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية آسيوى الأصل والنشأة ، بل يقول فيرث : إن هومر نفسه اسم سامى آسيوى محرف من « زومر » بمعنى المغنى أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين .

ولا يريد هرتز أن يقف فى الإنصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس . لأنه يرى أن الفواصل بين أى شعبين فى العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصى على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام . فهنيبال الزنجى الذى اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده إلى رتبة مهندس فى المدفعية وبنى بسيدة من الأشراف ، وكان حفيدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء فى الدنيا ، وسليمان وهو زنجى آخر كان فى البلاط النمسوى فى القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان زنجبار فبلغت بأدبها ورجاحة لبها مكانة تغبط عليها فى البلاط الألمانى وأصبحت صديقة حميمة للإمبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التى عنوانها « من قصة أميرة عربية » . وقد كان الدم الزنجى يجرى فى عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف

يقول هرتز : « لا ترى أحدا يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق أو بين الحصان الأبيض والحصان الأسمر . أما فى بنى الإنسان فالفرق اليسير – بالغاً ما بلغ من التفاهة – كاف لأن ينشئ من الأوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخفها وأنآها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف فى الدرجة لا فى الجوهر . فقد يرينا المجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بنى الإنسان إنما هى فروق فى درجات التجمع والتوزع فى مادة صبغة واحدة متماثلة فى الجميع » .

كلام إذا رجعنا به إلى الأسانيد والبينات فهو أقوى سنداً وأثبت بينة من كلام المغرقين فى تمجيد الأوربيين وتفضيلهم على جميع الشعوب ، وإذا رجعنا به إلى الهوى فهو أقرب إلى هوانا وأولى بإصغائنا من كلام أولئك المغرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تؤيد دعوى العنصريين الذين يستخلصون من النوع البشرى كله نخبة واحدة ويفردونها بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق بين السلالات الإنسانية .

ولكننا نتجاوز الحد المأمون إذا تجاوزنا هذه الحقيقة إلى ما وراءها ، فكل ما هو محقق فى صدد المفاخر العنصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذى يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفى وجود الاختلاف بين العناصر ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية . فهذه فروق موجودة يزداد ظهورها فى بعض الأفراد وينقص فى آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأتى لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها إلا إذا تجاوزنا العيان وأغضينا عن المحسوس الماثل لجميع الأذهان .

وقد يوجد من العنصرين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة

بينهما على الباحث المحقق فضلا عن الناظر فى عرض الطريق . ولكن التشابه حيناً لا يمنع الاختلاف فى جميع الأحيان . ولو ذهبنا نبطل المخالفة بين الأنواع كلما وجدت المشابهة بينها لأمكن إنكار الفارق بين الإنسان والحيوان على هذا القياس ، فإذا قيل إن الحيوان يمشى على أربع أمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان يمشى على أربع ، وإذا قيل إن الحيوان أعجم أمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان أبكم وإن بعض الطير ينطق كما ينطق الإنسان وإذا قيل إن الحيوان مسلوب العقل والتفكير أمكن أن يشار إلى أفراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون ، وإذا قيل إن الإنسان والحيوان لا يتناسلان أمكن أن يقال إن الكلب حيوان والهر وهما لا يتناسلان .

فوجود المشابهة فى بعض الأفراد لا ينفى المخالفة فى عامة الافراد . . وقد يتعذر تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم المقرر ولكنه مع ذلك يبقى فارقاً حاسماً إلى أن يوجد التعريف .

والحدُّ المأمون الذى لا نريد أن نتجاوزه فى هذا الصدد هو ما أسلفناه من أن الدعوى التى تفرد بعض العناصر بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق هى دعوى يعوزها الدليل القاطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العيان . أما الاختلاف بين خصائص الأجناس فهو موجود لا شك فيه وإن تفاوتت درجات ظهوره فى بعض الأفراد .

فمن المشاهدات — ومن البديهات معاً — أن العزلة فى النسب وفى التعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العزلة فى الصفات الجسدية والخلائق النفسية على السواء .

ومن المشاهدات — ومن البديهات معا — أن الشعب الذى يقضى

عشرة آلاف سنة ولاءً فى مكافحة العوارض الجوية والاحتيال على موانع الطبيعة والتأهب للمفاجآت من جيرانه ومن طوارق الأرض والماء والسماء ، لا يشبه شعباً قضى مثل تلك الدهور فى الدعة أو فى التعويل على المصادفات وهو معفى من الحيلة والجهد فى صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن التوارث فى الخلق والخلق منوط بالناسلات Genes التى توجد فى خلايا الذكور والإناث ، وأن هذه الناسلات تتقارب فى أفراد القبيل الواحد كما تتقارب فى أفراد الأسرة الواحدة . ولكننا لا نعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الزمن يكفى لتحويل العوارض التى تنشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات تستقر فى تكوين الناسلات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل ما يوجد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل فى عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف فى التكوين .

والذى يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة ، ونعتقد أن العلم وشيك أن يمثله فى تجربة من التجارب المقررة — أن قراءة الوجه الإنسانى تدل على كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة أوثق الارتباط بالأعصاب ثم بالعظام .

فأنت لا تخطئ تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى وجوه أبنائها ، ولا يفوتك أن تعلم أن هذا الوجه السهل الذى تغلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وجه أناس مارسوا فى ماضيهم قليلا من الكفاح وقليلا من التجارب وقليلا من حوافز النفوس ، وإن ذلك الوجه الحازم الذى يلفتك إلى متانة الأعصاب والعظام قبل أن يلفتك إلى بضاضة اللحم والدم هو وجه أناس ثابروا على الاعتزام والجلد ولم

يستسلموا لسهولة العيش منذ زمن بعيد ، وليس فى وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الحازمة فى الوجوه ، فإن اللحم لا ينقلها والدم قد يخزن الناسلات ولكنه لا يخزن القوى التى هى من قبيل الطاقة الكهربائية فى الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن إذن أنها تنقل فى مخازن الأعصاب ثم فى مخازن العظام ، ولعلها تنحصر فى الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم – فيما نقدره – أن يهتدى إليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانتباه والتنبيه .

ومهما يقل العلم غداً فى هذه المسألة فالذى نجزم به منذ الساعة أن وجوه الأمم التى قضت ألوف السنين فى الجلد والاعتزام تخالف وجوه الأمم التى تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ، وإن الاستدلال بملامح الوجوه طبيعة فى جميع الأحياء ، لأن الحيوان ينظر أول ما ينظر إلى وجه الحيوان الذى يقابله ليعلم هل يسالمه أو يناجزه ويتحداه ، وإن كانت الوجوه لا تبدى كل ما فى النفوس والعقول فهى كذلك لا تخفى كل ما فى النفوس والعقول .

وحسبنا الآن أن العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأجناس تورث إلى زمن بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج فى أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وإن بعض العادات الاجتماعية التى تنجم من تشابه المعيشة تثبت فى الأفراد بعد زوال أسبابها إلى حقبة طويلة ، وإن الأبناء ينقلونها عن الآباء بالقدوة والتلقين وإن لم ينقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التى تتمثل فى الناسلات .

وليس بنا هنا ان نبسط القول فى خصائص الأجناس جميعها ، لأن

الجنس الأسود هو الذى يعنينا منها فى هذا الكتاب ، وهو من الأجناس التى يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف فى وصفه أقل من الاختلاف فى وصف غيره من الأجناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على قول بعض المتأخرين .

ونحن ننقل هنا شذرات من أوصافه فى كتب علم الأجناس وعلم الإنسان ونصحح بعضها ببعض ونضيف إليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختبار .

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب أجناس العهد القديم :

« إنّ الزنجى مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور فى الذقن ، أنفه أفطس واسع المنخرين ، وشفتاه غليظتان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وضرس العقل منها يظهر سريعاً ويذهب أخيراً ، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين ، وربلات ساقه معيبة ، وقصبة رجله منبسطة مع انقباض فى الإبهام ، ومادة الصبغة السوداء فى الزنجى كما أسلفنا تسرى إلى عضلاته وقد تسرى إلى دماغه وهو بالقياس الى الأدمغة الأخرى بسيطة التلافيف . وميله إلى الفنون قليل ما عدا الموسيقى فهو مغرم بها أشد غرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أبناء الزنوج قلما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ، ويغلب عليه الكسل والإيمان بالخرافة ومن طبعه العطف والوفاء . وهما خصلتان ترغّبان من قديم الزمن فى اقتنائه واستخدامه . فمنذ عصور الفراعنة فى الأسرة الأولى كانوا يبعثون الحملات إلى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها ، وكان عدد الزنوج المجلوبين كبيراً على الأغلب فى جميع الأزمان . ولعل عبد ملك الذى

أنقذ حياة النبى أرميا كما جاء فى الأصحاح الثانى والثلاثين كان من الزنوج وكذلك الكوشى جد اليهودى الذى جاء ذكره فى الأصحاح السادس والثلاثين إذ يقول : (فأرسل كل الرؤساء إلى باروخ يهودى ابن نثنيا بن شلميا بن كوشى قائلين : الدرج الذى قرأت فيه فى آذان الشعب خذه بيدك وتعال) .

«ومع قدم الاتصال بالحضارة المصرية تلك القرون الطوال لم يتعلم الزنجى منها على الأرجح غير صهر الحديد ، فجاء عصر الحديد معقباً لعصر الحجر تواً فى تاريخ بعض القبائل بغير توسط من عصر الشبه أو النحاس .

«والزنجى مقلد شديد الميل إلى التقليد . ولهذا يلفت النظر أنه لم يظهر قط رغبته فى الرسم خلافاً للمصرى المثقف ، بل خلافاً لأبناء قبائل البوشمان المقيمين بأقصى الجنوب فى القارة الإفريقية ، فإن رسوم الحيوان على الجدران التى تحتمى بها قبائل البوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يُخجل الفنان الأوربى إذا نسب إليه ، وهى على الجملة تفضى بنا إلى سؤال عن قدم الجنس الزنجى فى التاريخ .

«فى جنوب مصر تشاهد الصخور الرملية التى تغطيها رسوم الحيوان والإنسان ومنها الحديث الذى لا شك فى حداثته والقديم الذى لا شك كذلك فى قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شىء من تلك الرسوم ونقوش ترجع إلى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تغيير قليل من أثر العوارض الجوية حتى ليخيل إلى الناظر إليها أنها من عمل أمس القريب ، وأما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارض الجوية أنها قد مضى عليها ردح طويل من الزمان ، ويرى — عدا هـذا —

بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار ، فإذا لاحظنا أن ذلك الإقليم كان أرضاً قاحلة من بداية التاريخ المصرى دل حضور الزرافة فى رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحاً مروية بالماء تغطيها أشجار الحسك التى يرعاها الزراف . وينتشر رسم النعامة فى تلك الرسوم كما ينتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعامة من المقاطع الهيروغليفية التى تتمثل فيها الطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وخليق بهذا أن يدلنا على أن النعامة لم تكن معروفة عند مخترعى الكتابة المصرية الأولى ، وأن سير فلاندرس بترى على حق حين يستخلص من هذا أن الرسوم التى ذكرناها هى بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين فى وادى النيل . وتؤيد رأيه كشوف السائحين فى جهات أخرى من أفريقية الشمالية حيث تشاهد أمثال تلك الرسوم فى جنوب تونس ومراكش . وقد استطيع الاهتداء إلى تاريخها التقريبى من حالة واحدة أمكن العثور عليها ، فإن الدكتور بونيه Bonnet وجد فى وهران الأداة الحجرية التى كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التى عليها تلك الرسوم ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع النيولوتى الذى تصنع فيه تلك الآلات ، ومن ثم يفهم أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية . وهو عهد فى مصر جد بعيد .

«فمن المحتمل إذن على ما يظهر أنه فى العهد الذى كانت فيه الصحراء الكبرى مخصبة وكانت دال مصر ذراعاً من البحر الملح كان جيل من الناس قريب إلى جيل البوشمان ينزل فى أفريقية الشمالية بين السواحل الأطلسية وشواطئ نهر النيل . ولعل قبائل الأكاسين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرءوس فى أواسط أفريقية بقية ذلك الجيل

الطبيعية ودواعيه الضرورية إلى المعيشة الاجتماعية ولعل «هافلوك إيليس» حين قال: «إنه قد سلك سبيله إلى الحضارة راقصًا» قد لخص ملكاته الفنية أجمل تلخيص.

فالرقص لا يكون بغير نغمات، والمرح المطبوع فى الزنجى هو مبعث وحيه الذى ألهمه الرقص والغناء، فهو عظيم الولع بالأغانى سريع الأذن إلى التقاطها حين يسمعها مرة أو مرات قليلة، وينبغى أن نفرق بعض التفرقة بين ملكة الموسيقى وملكة الغناء والإيقاع لأن الأصوات الموسيقية تبلغ من التراكب والتنوع مبلغًا يبعدها من الإيقاع الذى يصاحب حركات الأجسام فى الرقص الفطرى أو الرقص الحديث.

والزنجى يحب الغناء الراقص ويبرع فيه، وقد عرف به حيث نزل من بلاد العالم فى عصور التاريخ، ومن هذا رقص النوبة الذى علمنا – فى سيرة النبى عليه السلام – أنه دعا السيدة عائشة رضى الله عنها إلى التفرج به والنظر إليه، وكان يعرف بالزفيف لسرعته وتوالى الحركة فيه.

ولما اشتغل الزنجى بالفنون الأخرى كصنع التماثيل كان الإيقاع رائده الأول فى هذه الصناعة التى قد يظهر للوهلة الأولى أنها بعيدة عن الغناء. لأن النسب التوقيعية كانت تغلب فى التماثيل الزنجية على مشاهدات الحياة، وكانت منذ وجدت تنقل الشبه فتحسن نقله ولكن على نمط واحد يقل التصرف فيه، وهى لا تزال اليوم بحيث وجدت منذ آلاف السنين.

وشيوع التماثيل وصوغ المعادن ونسج الثياب الموشاة بالخطوط والأشكال مع ندرة الرسم فى قبائل الزنج أمر لا غرابة فيه، لأن تقليد الجسم فى أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده فى بعد واحد، وهو التقليد

الذى يوجب التصرف لتمثيل العرض والطول والقرب والبعد حيث لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد.

ولتماثيلهم – مع غلبة الإيقاع عليها – سمة أخرى تعرف بها بين سائر التماثيل القديمة، وهى سمة الخوف والتخويف، وهى كذلك سمة لا غرابة فيها إذا نظرنا إلى الأخطار التى تحدق بالزنجى بين الوحوش والحيات وآفات الأرض وصواعق السماء، ونظرنا إلى الغرض الذى يتوخاه من صنع كثير من تماثيله، وهو لبس الوجوه والأقنعة التى تخيف أعداءه فى ميدان القتال.

ولم تزل فنون القتال عند الزنجى ضربا من الفن الجميل لأنها تمزج بين الحركة الرياضية وبين الرقص والإيقاع والغناء. وليس أشبه بمناظر الرياضة البدنية من منظر الزنجى وهو يقذف بالرمح ويوازن بين وضع يديه وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد، كأنه قد ركزه فى الهدف بيمناه.

والزنجى شجاع مقدام لايهاب الموت ولا ينكص عن الألم، وقد تلهبه السياط ويسيل الدم من أهابه المزق وهو صابر لا يتلوى ولا يتأوه. لأنه يحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت جبنًا لا يجمل بالرجال. وقد عودته مجالدة الوحوش والأفاعى والمحاذرة الدائمة من المتربصين به أن يقسو عليها وأن تقسو عليه، وأن يحتملْ القسوة على نفسه كذلك... وفيه إلى جانب الصبر والشجاعة عناد شديد حين يخشى أن يتهم بالجبن إذا صدع بالأمر فراراً من العذاب.

وهو مصدق وفيّ يؤمن بالعقائد التى توارثها عن أسلافه وأكثرها من

قبيل السحر وعبادة الأرواح الخفية، وتقديس الرُّقَى والتعاويذ التى تعصمه من فعل تلك الأرواح.

والوفاء فيه طبيعة لأنه نشأ على طاعة الرئيس فى القبيلة وطاعة الساحر الذى يعلمه ويحميه. وقلما يغدر أو يخون إذا وجد من يكسب ثقته ويشتمل على عطفه وولائه. وإنما يغدر ويخون إذا توجس وسلبت منه الطمأنينة، فإنه ليرجع إذن إلى حياة المخاوف والأخطار التى علمته الحذر الدائم بين الوحوش والآفات. أو بين الأسرار الغوامض التى يتكفل الساحر بجلائها له على ما يعتقد ويروم. فيعمل فى حالة التوجس وسلب الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل الهاجم الذى يتوقع الهجوم من كل مكان. فلا يبالى ما يصنع وهو غاضب يائس محروم من العطف والحنان.

وينبغى – قبل مراقبة الزنجى وتسجيل غرائبه – أن ننسى أننا نراقب خلقة غريبة تخالف ما طبعنا عليه. لأننا حريون أن نستغرب كل شىء إذا نحن توقعنا الغرابة والاستغراب. فيمر بنا العمل الذى يعمله أبناء لغتنا وعنصرنا دون أن نلتفت إليه. ثم يمر بنا هذا العمل بعينه حين يعمله الغريب فنسرع إلى التنبه له ونحسبه من البدوات التى لا تصدر إلا عن أمثال ذلك الغريب. وكثير من غرائب الزنوج أو غرائب الأجناس عامة لا تحسب من قبيل الغرائب إلا على هذا الاعتبار.

* * *

ولو شاء الناس لالتفتوا إلى هذه الملاحظة فى الحقائق الاجتماعية الكبيرة كما يلتفتون إليها كل يوم فى الحقائق الاجتماعية الصغيرة. فإننا نسمع العامة فى كل مكان يتحدثون عن بعض المشهّرين بالسوء فيقولون عنه «إن صوفته حمراء» ويعنون بذلك أنه يفعل الشىء الذى يفعله غيره

فسرعان ما يتنبه إليه الناس ويتعقبونه بالذم والتشهير. ويمضى غيره بفعلته دون أن يتنبه أحد إليه فضلا عن ذمه والتشهير بسمعته. وهم يستعيرون هذا الوصف من لغة الرعاة الذين يفردون الخروف «الأحمر» بالزجر والعقاب وهو لا يصنع شيئًا غير الذى يصنعه إخوته فى القطيع من ذوات الفراء السود. ولكنه يظهر وهى لا تظهر. فيعاقب وحده وتنجو هى من الملاحظة والعقاب.

والجنس الأسود له غرائبه الكثيرة فى الأخلاق والعادات، ولكننا إذا بدأنا بالاستغراب أو كان الاستغراب سابقًا للمراقبة كنا خلقاء أن نجد الغرابة حيث لا غرابة على الإطلاق، وحسبنا أنه يخالف الناس فى أصول الطباع وهو لا يفعل إلا ما يفعله فى مكانه سائر الخلق من أبناء آدم وحواء.

أما مداركه العقلية فمن الواجب قبل الحكم على طاقتها الأصيلة أن نذكر الضرورات المختلفة التى باعدت بينه وبين أجيال البشر الأخرى فى مواطن الإدراك. وهى مباحث العلوم والصناعات.

فليس من قصور العقل وحده أن نجد الزنجى مقصراً عن الأجناس البيضاء والسمراء فى علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء. لأن حياته لم تلجئه قط إلى الملاحة فى البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الأمم الأخرى من حركات الأجرام السماوية ومن علوم الفلك والظواهر الجوية والأنواء. ولم تلجئه قط إلى إقامة الصروح ومزاولة البناء بالأحجار فيعرف من قواعد الهندسة وصناعات النحت والعمارة ما عرفته الأمم التى تهيأت لها الوسائل ودفعتها الضرورات إلى التشييد والتعمير. ولم تلجئه قط إلى توقيت مواعيد الرى ولا السيطرة على مجارى الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص

الجوامد والسوائل ويراقب أسباب الخصب والقحط مراقبة المدير المسئول عن عواقب الإهمال فى هذا التدبير. ولم تلجئه قط إلى الافتنان فى طهو الغذاء ونسج الكساء وصوغ الآنية والأدوات التى تستخدم فى هذه الأغراض، ولم تلجئه قط إلى تفتيق الحيلة فى حفظ الطعام وادخاره وصيانته من العطب والفساد، ولا ألجأته إلى تفتيق الحيلة فى ابتداع أفانين الحرب من مطاولة للحصار وتنويع للأسلحة واعتماد على أسلوب فى الكر والفر غير أساليب الأحياء المحدقة به فى الجرأة تارة والاستخفاء تارة أخرى، لأن أبناء القارة أجمعين درجوا على نمط واحد فى الهجوم والدفاع واستخدام السلاح وتشابهوا فى مواقع واحدة يسكنها المغيرون والمدافعون، فلا حاجة بهم إلى التفوق والاحتيال على مختلف المواقع والأسلحة والأساليب.

وكل مااحتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وجدوه سهلا ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة فى مواعيده التى تعودوها، فإذا بقى من وراء ذلك سر يجهلونه أو محذور يتقونه فهنالك الساحر كفيل به يكفيهم مؤنته إذا صدقوه وأطاعوه، ومن ثم عاشوا حياتهم كلها وقضوا عصور التاريخ وماقبل التاريخ وهم بين الدعة والطمأنينة إلى العيش، وبين القتال والجلاد، وبين التصديق والتعوذ بالرقى والطلاسم. ولزموا هذه الحالة أعواماً بعد أعوام وأحقاباً بعد أحقاب، بغير حاجة إلى التبديل أو التجديد.

فالأمم التى عرفت الهندسة والفلك والعمارةوالكيمياء وأدوات البذخ والرفاهة إنما عرفتها لأنها لاتستطيع أن تعيش فى بيئتها حقبة طويلة بغيرها، ولو عاشت فى القارة الإفريقية كما عاش الزنوج لأهملتها ولم تفكر فيها، ولاشك أن الزنوج لو بدأوا الحياة الاجتماعية حيث بدأها أولئك

الأقوام لاخترعوا اختراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم بغير فارق كبير فى جوهر الأمور.

أما الطب ومداواة الأمراض فكل ماحذقه الإنسان الفطرى بمعزل عن العلوم الأخرى فقد حذقه السود وبرعوا فيه، ولم تفتهم خاصة لازمة لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الإيحاء والتأثير بالعقيدة والتنويم.

ونحن لانعنى بهذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من أجناس البشر أن الفرق بينهم وبين تلك الأجناس معدوم أو قريب التحصيل والاستدراك، ولكننا نعنى أنه يرجع إلى أسباب تجوز عليهم كما تجوز على غيرهم فهم وسائر البشر فى أصولها سواء.

ولو نظرنا إلى النصيب الذى تيسر لهم من الثقافة الأدبية فحصلوه وأجادوه لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنةشأواً محموداً فى مجال الآداب والعلوم، فقد نبغ منهم فى العربية شعراء معدودون من طراز عنترة وسحيم عبد بنى الحسحاس ونصيب والأغربة المشهورين الذين أجادوا الحماسة كما أجادوا الغزل والنسيب، وبين غزلهم والأغانى المرقصة التى عكف عليها السود من آلاف السنين صلةٌ قريبة لاتصعب النقلة فيها، ولكن الطبقة الفنية — والنفسية — التى ارتفعوا إليها فى ذلك الغزل تدل على أن الآباد الطوال التى قضوها فى المعيشة الآبدة لاتحجبهم عن الظرف الاجتماعى إذا وجدوا السبيل إليه، وماأحسب شاعراً من شعراء الحضارة يترفع عن توقيع هذه الأبيات التى نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال:

ماذا يريد السقام من قمر   كلُّ جمال لوجهه تبع

مايرتجى ؟ خاب ؟ من محاسنها	أماله فى القباح متسع ؟
غيّر من لونها وصفّرها	فارتد فيـــه الجهال والبدع
لو كان يبغى الفداء قلت له	هاأنا دون الحبيب ياوجع

ففى هذه الأبيات من روح الفكاهة ودعابة الظرف والفطنة إلى محاسن الملاحة المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل .

* * *

ويبدو لنا أن فوارق الإدراك لم تضل العقول فى أمر الجنس الأسود كما ضللها ذلك اللون الماثل للنظر قبل مثول الفوارق العقلية والخلقية للبصائر والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لاهوادة فيها . وانطلق النخاسون فى طريق البحر الأحمر وبحر الهند ونهر النيل يحملونهم إلى بلاد العرب ومابين النهرين .

كما يحملونهم إلى مصر واليونان والرومان ، ولم تكد الدنيا الجديدة تنكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها فى هذا السباء الذى بدأت به أقدم الأمم من ألوف السنين ، ولعل فضائل هذا الجنس — وفى مقدمتها الوفاء والصبر والقناعة — كانت أسرع من نقائصه فى الجناية عليه . ولهذا تمادى النخاسون فى نقل السود إلى أمريكا وانقطعوا عن نقل الهنود الحمر إلى أوربا بعد سنوات قليلة . لإخفاق التجربة وضياع الأمل فى صلاح هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المفيد .

وخلاصة مايقال فى تاريخ الجنس الأسود إنه جنس قديم معرق فى القدم يوغل فى أصوله إلى ماقبل التاريخ بزمن بعيد .

وإنه جنس قد وقف به النماء عند حدود الفطرة الأولى لأن معيشته فى

القارة الإفريقية ، لم تلجئه إلى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع الصناعات وتدبير وسائل الادخار والحيطة لمستقبل البعيد . ولكنه عرف كثيراً من الفضائل والملكات التى توائمه فى بيئته المستقرة . لأنه عرف النضال والمرح والإيمان . فعرف الشجاعة والوفاء والصبر على الألم . واستنبط الفنون التى توافق مرحه وإيمانه بالمجهول .

وكأنما اتفقت عليه منذ القدم عوادى الإجحاف جميعاً ولم يسعده حظه بباعث واحد من بواعث الإنصاف والرعاية . فاصطلحت عليه أسباب الجشع والاستغلال وغرابة المظهر وقلة الحيلة فى الدفاع وسهولة التطبيع والتعويد ، وجعلته هدفاً يسيراً للقناصين والنخاسين الذين يحفزهم الطمع ولايزعهم عنه وازع من وشائج العطف أو زواجر الأخلاق .

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طوالا بعد عصور طوال إلى عصرنا هذا الذى نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الإنسان وحقوقه ، واشتعلت فى الكرة الأرضية حربان عالميتان فى النصف الأول من هذا القرن العشرين ولاتزال الكلمة الباقية التى تقال لإنصافه وحماية حوذته أكبر وألزم من الكلمة التى قالتها الحضارة الحديثة إلى الآن .

ففى هذه السنة التى نحن فيها (١٩٤٥) انعقد مؤتمر الجماعات التى تشتغل بالتبشير فى الجزر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديداً أهاب فيه بأمم الحضارة إلى محو الفوارق القائمة بين البيض والسود فى المستعمرات البريطانية ، وأعلنت لجنة الكنائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهى ترجو معه « أن تنجز الأمم المتحالفة وعودها المتكررة بالتسوية بين الألوان والعناصر فى فرص التعلم والحياة »

ولاتزال الفوارق الجنسية قائمة فى الولايات المتحدة على تعدد

الدعوات فيها إلى المساواة والإعراض عن المزاعم العنصرية التى روّجها خصوم الدولة الأمريكية فى الحرب العالمية الحاضرة ، ففى الولايات الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بنصوص القوانين والأوامر الحكومية ، ولايباح للسود الجلوس مع البيض فى المركبات العامة ولاالنزول معهم فى الخانات والفنادق ، ولاتعليم أبنائهم فى المدارس التى يتعلم فيها أبناء البيض ، ولما صدر القانون الذى يخول الطفل الأسود حقاً فى التعليم كحق الطفل الأبيض مع انفصال المدارس والجامعات — تبين من التنفيذ أن المساواة صورة لاحقيقة ، وأن التلميذ الأبيض يكلف الدولة فى تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالا فى السنة ولاتزيد كلفة التلميذ الأسود فيها على تسعة عشر ريالا على الرغم من نص القانون ، وتبين أن الفارق فى ولاية مسيسبى يتجاوز ذلك كثيراً لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالا ولاتزيد نفقة الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال .

وقد ألغى فى ولايات الشمال معظم القوانين التى تنص على التفرقة بين البيض والسود ، ولكن هذه التفرقة مازال قائمة بحكم العرف والعادة على نحو لايقل فى صرامته عن صرامة القانون ، فلايرى الأسود نازلا بفندق من الفنادق الكبيرة أو جالساً فى مطعم من المطاعم الفاخرة ، وإن كان من أصحاب الثراء .

* * *

وإبطاء الحضارة الغربية كل هذا الإبطاء فى تقرير مبدأ الإنصاف — فضلا عن تنفيذه — هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الإسلامية فى هذا المضمار الإنسانى المتوعر المهجور من قديم الدهور ، فإنها خلصت إلى

أدب الإنصاف والمساواة بين بنى الإنسان منذ أربعة عشر قرناً بغير ماحافز من المصالح الاقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق . بل خلصت إليه على كره من تلك المصالح وعلى رغم من تلك العادات . واجترأت على سلطان المادة الطاغية بسلطان الروح الرفيع . ولايحسب الدين ديناً مالم يكن له سلطان روحى يغلّبه على طغيان المصالح والشهوات .

* * *

وقد كان هذا السلطان الروحى هو السلطان الذى أذعن له السادة والعبيد عند ظهور الدعوة الإسلامية بين قبائل البادية العربية . واشتمل على بلال بن رباح صاحب هذه السيرة وهو مولى ضعيف غريب فى أرض الحجاز . كما اشتمل على أبى بكر والفاروق وعثمان بن عفان وهم سادات مكة وأقطاب قريش .

والذى يعنينا فى هذه المقدمة عن تاريخ الأجناس والجنس الأسود خاصةً أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال .

وليس الملتقى بينهما بعسير .

فمن مجمل الصفات المتواترة التى وُصف بها بلال يتراءى لنا أنه قريب الملتقى بخصائص الجنس الأسود التى أجملناها فى هذه الصفحات .

ولانحب أن نقول إن الذى يتصف بتلك الصفات لن يكون حتماً لزاماً إلا من الجنس الأسود بخصائصه المعلومة . فلا يزال من الجائز جداً أن يكون بلال على تلك الصفة — فيما عدا اللون — ولايكون من القبائل الإفريقية السوداء . ولكن الذى يقال ولايتجاوز حد الصحة فى المقال أنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من غرائب المصادفات . ولاداعية عندنا الآن لتقدير تلك المصادفات .

فلو لم يكن بلال أسود الإهاب لكانت فى صفاته النفسية علامات لاتستغرب فى الأجناس السوداء . لأنها من خصائصها المميزة التى تبرز فيها عند مراقبتها على الإجمال . ومنها حب الإيقاع الموسيقى وسليقة الإيمان والتضحية والعناد والصبر على عذاب الجسد والوفاء لمن يستولى منه على مكان الثقة والإعجاب .

ولكن الجنس الأسود لايحتويه كله على مايظهر من بعض صفاته الجسدية فيما عدا لون السواد ، فلم يوصف بالفطس ولابغلظ الشفتين ولابالشعر المتقبض المتصوف الذى خص به الزنوج ، والذين يُشاهدون على هذا التكوين بين أمم أفريقية الشرقية كثيرون حتى هذه الأيام ، وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قديم بالأجناس السامية أو بالعربية منها على التخصيص ، لأن رحلات العرب إلى سواحل أفريقية الشرقية قديمة قبل الإسلام بزمن بعيد .

ومن علماء الأجناس من يربط بين جلة الأحباش وجلة العرب - ولاسيما اليمانية - برباط وثيق ، لأن عبور أهل اليمن إلى الحبشة وعبور أهل الحبشة إلى اليمن ميسران معهودان من أقدم العصور .

وقد قيل فى تاريخ بلال إنه من الموالى المولدين بمكة أو بالسراة اليمانية . فأصدق مايقال فيه إنه من سلالة زنجية سامية ، وأنه على أقرب مايكون الزنج من خلائق العرب أو المستعربين .

العرب والأجناس

ألممنا فى فصل سابق بأقوال بعض العلماء فى مسألة العنصر وفوارق الأجناس ، فأياً كان قول العلم فى هذه العصبية العنصرية – أو الجنسية – فالقول الذى لا ريب فيه أن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه العصبية ، ويلتبسان فى بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما : وهما المفاخرة الجنسية والعداوة الجنسية .

فقد تكون مفاخرة جنسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة جنسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة طبيعة الجماعات حيث كانت من قديم أزمانها ، وقد توجد المفاخرة فى الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب ، وقد تفاخر البطون من القبيلة الواحدة ولا تتعادى ، وقد تتعادى ولا تتفاخر ، وقد تتفاخر وتتعادى فى آن ، وهى من جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا فى مصر مفاخرات كثيرة بين أبناء القاهرة وأبناء الإسكندرية ، وبين أبناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول اللهجات والأذواق والأطعمة لا تتجاوز الفكاهة إلى الجد فى عامة أوقاتها .

ومثلها متكرر يشاهد بين أبناء الأقاليم الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات فى صقع واحد ولو من أرومة واحدة .

وقد تتجاور العناصر ألوف السنين ولا تتجاوز المنافسة بينها حدود المفاخرة اللسانية والمنافرة الكلامية ، ولكنها تتجاوز المفاخرة العنصرية إلى العداء العنصرى كلما اندفعت إلى التنازع بينها على مغنم واحد لا يتأتى

لإحداها بغير القضاء على الأخرى أو إذلالها . ويستحكم العداء بينها على الزمن إذا تداولت بينها الذحول والغارات فلا يهمها المغنم يومئذ كما يهمها الثأر والانتقام .

والعرب قد عاشت فى جزيرتها بمأمن من سطوة جيرانها إلا فى أطراف الجزيرة ، حيث لا يبلغ النزاع بينهم وبين أولئك الجيران مبلغ الإبادة والاستئصال

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانُهم مكانهم . فوجدت بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء اللدود .

وأملى التاريخ على العرب وجه المفاخرة إملاء لا اختيار لهم فيه .

فقد كان جيرانهم الفرس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيرون جيرانهم العرب شظف العيش وسوء الطعام والكساء ، وكان العرب لا يجهلون حظ هاتيك الدول من الجاه والترف وغزارة الأمواه والأزواد ، فإذا فاخروهم تركوا المفاخرة بطعام أمتع من طعامهم وكساء أنفس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم ، ورجعوا إلى فخرهم الذى يملكونه ولا يهابون المقالة فيه ، وهو فخر الفصاحة وعراقة الأحساب والأعراض .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لاحساب عندها للحسب العريق .

وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقالة فيه ، ولم ينشب بينهم وبين مفاخريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبيدون فيه أو يبادون . فوقفوا بالمفاخرة دون اللدد فى الخصومة الدموية ، ونقلت عنهم وعن مفاخريهم أحاديثُ مستطرفات فى هذا الصدد هى أقرب إلى

مساجلات الأدباء فى موقف الدعاية منها إلى المنازعات التى تسفك فيها الدماء .

إن فخر الروم والفرس ببياض الألوان قال العرب : تلك وجوه مقشرة !

وإن فخر الروم والفرس بالخوان الحافل فخر عليهم العرب بالجود وبذل الموجود .

وساجلوا وسوجلوا فى هذا المجال فأثبتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عداء العنصر أو عداء الجنس كما عرفه البيض والحمر فى القارة الأمريكية ، أوكما عرفه الأوربيون والأصلاء فى القارة الأسترالية ، أوكما عرفه السلافيون والتيوتون فى أوربا الشرقية ، أوكما عرفه الإسرائيليون والكنعانيون أو عرفه المغاربة والأسبان فى زمن من الأزمان .

وإذا سمعت الزراية بالعبيد على لسان العربى فآخر شيء يتبادر إلى الذهن أنهم يقصدون عداء الألوان والأجناس ، أو يخصون اللون الأسود بذلك الازدراء أو ذلك العداء .

فقد غلبت على بعض العرب أنفسهم سمرةٌ تضرب شديداً إلى السواد ، وكان من سادتهم مَن وُصف بحلكة اللون وشابه الزنج بالإهاب الخشن والبشرة الفاحمة .

فإذا قالوا « العبد » فهم لا يقصدون الزنجى ولا يخصون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك أساره وكل جليب يباع ويشرى فى الأسواق ، ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

ويقصدون على الأخص كل إنسان مجهول النسب لا ينتمى إلى أصل

من أصولهم المشهورة . . . إذ لم يكن فى وسعهم أن يجهلوا مفخرة النسب وقد فرضتها عليهم معيشة البادية ومفاخرة الحاضرة مئات السنين .

فلا يُزدرى العبد عندهم لأنه حالك اللون ولا لأنه من جنس يعادونه ويعاديهم ، ولكنه يزدرى لعلة اجتماعية لا لعلة عنصرية ، وقد تزول هذه العلة من حيث لا تزول علل العناصر وعداوات الأجناس .

وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثر فيه جلب الزنوج السود من القارة الأفريقية إلى فرضات البحار المقاربة للعاصمة العربية ، وأكبرها البصرة فى ذلك الحين . فشجر بين الزنج والعرب يومئذ عداء يشبه عداء الأجناس فى عصوره الحديثة والقديمة ، ونشبت فتنة الزنج بالبصرة على مثال الفتن الجنسية التى نشهدها اليوم أو توصف لنا فى التواريخ ، ولكنها كانت غاشية عابرة لسبب عابر ، فذهب أثرها بعد ذهابها بسنوات .

أما فى غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة فى بوادى الجزيرة وحواضرها ، وكان الرجل العربى يولد الجارية السوداء ويتبنى وليدها إذا نجب وصلحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة ، وربما كان له عبد يحمد خصاله فيعتقه ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات محرم منه ، ولا يمنعه أن يصنع ذلك عداء الجنس أو بغضاء اللون ، بل يمنعه عرف اجتماعى توجد له النظائر فى كل عرف يدور حول الزواج ، ولو بين الأقرباء .

وعلينا أن نحترس كثيراً من نسبة كل عبد أسود يذكر فى أيام العرب إلى الزنج أو أبناء حام كما يعرفون فى علم الأجناس .

فلعله أن يكون سامياً عبر إلى أفريقية كما عبر الأثيوبيون ، ولعله أن يكون خلاسياً من الساميين والحاميين . ويغلب على الظن أن بلالا —

صاحب السيرة فى هذا الكتاب – كان حامياً حبشياً ولم يكن زنجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التى تميز الأجناس والسلالات ، ولم يذكروا من أوصاف بلال الفطس ولا الشعر الصوفى « المفلفل » اللذين يميزان معاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أضنك العبيد حالا قبل الإسلام ، وكانت حال العبيد هى السوأى بين طبقات المجتمع العربى فى الجاهلية . ظلماً للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد ، فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب فى شريعة الثأر والدية ، وكان العبيد أسوأ حالا من وضعاء النسب لأنهم لا ينسبون إلى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة .

فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة فى المنازل والأقدار ، وكان خلاصهم كله فى عقيدة تنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة .

وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من جانبيه ، لأنه ينكر ظلم القسوة ، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة .

فحق له أن يلبى دعوته ، وأن يدعو إليه .

الرق فى الإسلام

كان الإيمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الحرية الإنسانية أو طريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .

لأن الإيمان بالروح يعلم الإنسان التبعة وإن «كل نفس بما كسبت رهينة»[1] وهذا هو أساس التكاليف والحقوق .

ولأنه يوحى إلى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء الإيمان بالروح سابقاً للرق لامتنع الاعتراف به فى الأديان التى تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الإنسان بيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها السادة والعبيد ، فضلا عن الإيمان بتفضيل روح العبد الصالح على روح السيد الذى يعوزه الصلاح .

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق فى المجتمع الإنسانى بآلاف السنين ، وكان الرق فى تلك الأحقاب الطوال قد امتزج بنظام الثروة ونظام المعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أذواق الناس وأخلاقهم فى العصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذب مبلغ الترفع عن تسخير الآدميين كما يسخر الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء . فدارت الأديان « الروحية » حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه فى معظم الأحوال ، ولم تكن للعبيد أنفسهم أنفة تعزف بهم عن هذه المنزلة التى فرضتها عليهم ضرورات الزمان ، ومن كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب .

ومع هذا لم يكن للمصلحين الدينيين بدٌّ من التوفيق بين عقيدة الروح وإباحة بيع الإنسان وشرائه كما تباع الآلات .

(١) المدثر ٣٨

فكان من توفيقاتهم فى هذا الباب أن العبد عبد بجسده حر بروحه أمام الله ، وأنه فى هذه الدنيا عبد وفى الآخرة سيد قد يرتفع إلى مراتب القديسين .

وكتب القديس بولس إلى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص فى الولاء لساداتهم كما يخلصون فى الولاء للسيد المسيح ، وكان الحوارى بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من سادتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح ، وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومة فى المناشير والعظات ، وأيده توماس الأكوينى كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذى اشتهر بالعلم والتقوى فى القرن الثالث عشر للمسيح . فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو فى كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء فى حكم الآلات التى تراد لعمل من الأعمال ولم ير فى نظام الرق شيئاً يعاب ، فمادام فى الناس من يعجز عن كفالة نفسه فعليه أن يعيش فى كفالة سواه ، وتبعه تلميذه الناسك لأن الزهد فى الحياة يجعل القناعة بأبخس المنازل أمراً سائغاً لاغضاضة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرفضون الحياة . . . وقد واجه الرق بهذا المزاج فحسبه من الحرمان الذى لا يناقض الخطة المثلى فى آداب الديانة وفضائل السلوك ، وسهل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أسر الضرورات وتقييد بعض الحركات ببعض فى نواميس الطبيعة وخصائص التكوين .

ومن أعجب العجب أن البلاد التى شاع فيها تحريم قتل الحيوان حتى ما يؤذى منه ولا يفيد – قد بلغت عقائدها القسوة القصوى فى معاملة الأرقاء ، فإن أناساً من براهمة الهند كانوا يضربون الذلة على العبيد

المعروفين باسم السودرا ، لأنهم خلقوا من أسفل أعضاء الآله فلا تبرحهم وصمة الذل ما لبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن يسل لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من الناس .

وكانت الحضارة تلطف من هذه القسوة بعض التلطيف فتجرى العادة أحياناً فى الأمم المتحضرة بالشفقة على العبيد والجوارى وتخويلهم بعض حقوق المساواة . فكان المصريون الأقدمون يجيزون معاملة الإماء كما تعامل الزوجات الحرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق فى غير جريرة ، ويلزمون الرجل فى موقف الحساب بعد الموت أن يبرئ ذمته من إيذاء العبيد والإساءة إليهم ، ويجعلون هذا الإبراء جوازاً لا مناص منه إلى حظيرة الأرباب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأجراء لأنهم كثيراً ماكانوا يؤدون فى مصر عمل الأجراء إن لم يكن عمل العبيد . فجنحت بهم الرغبة والقدوة إلى إنصاف الأرقاء والأحلاس ، وأنكروا الإرهاق كما أنكروا الضرب والإيذاء فى معاملة الأجراء .

وقال هيرودوت إن الفرس فى زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون السيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى ، وكانت شريعة الفرس أرفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترخص له فى الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرى واقتناء الزوجات من الإماء ، ووافق ذلك معيشة الحضارة فى المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة ، ولعلهم قد

استفادوا أيضاً من سنن العبرانيين فى معاملة الرقيق ، لطول العشرة بين اليهود وبين شعوب النهرين .

ولم تسلم أمة قط من إقرار نظام الرق وازدراء العبيد على اختلاف عناصر الأمم وأجناسها .

فما قيل عن فضل أمم الشمال الأوربية على أمم الجنوب كافة فى هذه المسألة خطأ ظاهر فى البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أمم الشمال لم تخل من نظام الرق سموّا فى الأخلاق أو تفردا بالصفات الإنسانية التى تُدَّعى للشماليين فى الزمن الأخير ، ولكنها خلت من نظام الرق لأن اقتناء الأرقاء فى تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحط عنها ، فهى فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق ، وهى مزية البقاع لا مزية عناصر الشمال .

ومازال الرقيق محروماً من المساواة الإنسانية إلى هذا اليوم فى الأمم الأوربية والأمريكية . وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد فى المستعمرات إذا هربوا من الأسر أو أغلظوا لمواليهم فى الكلام ، ولم يكن على السيد الذى يقتل مولاه إرهاقاً أو تعذيباً عقابٌ منصوص عليه .

تلك كانت حالة الرقيق جملةً فى القرون الأولى وفى القرون الحديثة ، وقبل ظهور الأديان « الروحية » وبعد ظهور تلك الأديان .

ومن الأسباب التى تذكر لتحسين أحوال الأرقاء ومنع الاتجار بهم فى العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان ييسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد التى تستخدم العمال الأحرار فى الصناعة وتبذل لهم أجراً لا يطمع العبيد السود فى مثله ، وكان اقتناء العبيد يضير أولئك العمال الأحرار فى الوقت

الذى عرفوا فيه حقوقهم ونهضوا للمطالبة بها ، وساعدهم على المطالبة بها أصحاب الأموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء .

ومهما يكن الرأى فى حقيقة هذه الأسباب فهى مما يدخل فى التقدير عند بيان فضل الإسلام وسبقه للحضارة الحديثة إلى أرفع الآداب وأكرمها فى مسألة الرق ومعاملة الأرقاء .

فلم تكن معاملة الأرقاء على الوجه الذى أمر به الإسلام مصلحة اقتصادية على فرض من هذه الفروض ، بل ربما كان من المصلحة إبقاء الرق على نظامه الأول ليفرغ الأرقاء لأعمال المعيشة والسخرة ويفرغ الأحرار لأعمال الجهاد والرئاسة .

كذلك لا يقال إن الإسلام تهيّب النظام القائم فى المجتمعات القديمة كما تهيبتها الأديان الروحية فدارت حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه فى معظم الأحوال ، ولم تأخذ بأيدى العبيد إلا بما كانت تفرضه عليهم من الطاعة وتزجيه إليهم من العزاء المنظور فى الدار الآخرة .

فلا يقال إن الإسلام قد منع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الإيمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . . . فإن الواقع أن أدياناً « روحية » كثيرة قد وفقت بين الأمرين على نحو من التوفيق .

ولا يقال إن الإسلام قد جاء بآداب الرفق بالرقيق بعد ذهاب الحاجة إلى تسخير الأرقاء وتبدّل الأحوال الاقتصادية فى مجتمعات المشرق والمغرب . . . فإن الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة فى البلاد الشرقية والغربية إلى زمن يذكره الأحياء . ولا تزال قائمة حتى اليوم فى بعض الأنحاء .

فإنما هو إذن فضل خالص من علل المادة ودواعى الثروة الاجتماعية ، وإنما هو نصر صريح فى عالم الروح يحسب للدين الإسلامى وحده بين سائر الأديان .

• • •

كان فى وسع الدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق فى العالم العربى وفى العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — فى حينها — إغضاء معيبا تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من المسائل الناطقة التى يؤل السكوت عنها بالإغضاء أو المداراة .

ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تخسر شيئًا لو أنها أهملت مسألة الرق فى أول ظهورها ! لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها فى إعتاق العبيد والإماء . كلما ساءت حالهم عند سادتهم بدخولهم فى دين الإسلام . وكان أبو قحافة يمثل الرأى الحصيف وهو يأخذ على ابنه الصدّيق بذل المال الكثير فى سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر فى إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التى تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة الماديه أقل احتفال .

وقد تبدل نظام الرق على يد الإسلام فى أوسع نطاق للتبديل أو على أعمق أساس يبنى عليه كل تبديل فى أمثال هذه الأنظمة الاجتماعية ، لأنه عمد إلى أساس التفرقة بين الأجناس والأقوام فمحاه أو عفى عليه . وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لافضل لمسلم على مسلم بغير التقوى ، وألقى إليهم فى أحاديث النبى القدسية أن « الجنة لمن أطاعنى ولو كان عبداً حبشيًا والنار لمن عصانى ولو كان شريفاً قرشياً » أو كما قال .

وحصر الرق مع هذا فى سبب واحد من أسباب الاسترقاق ، وهو الأسر فى ميادين الحروب ، فلا يملك الرجل أو المرأة بالنخاسة والاختطاف ، ولا يعد من العبيد إلا من وقع أسيراً فى ميدان القتال إلى أن يفدى نفسه أو يفديه من يفديه .

وقد مضت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الإسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة إليه ، ولا يزال الأسر مشروعاً والفداء واجباً ولو بتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التى تقوم مقام الفداء . ولا يقع فى العقل نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقى الأسر والاستئسار مقبولين فى شرعة المتحاربين .

ولم تنته عناية الإسلام بمسألة الرق بتضييق نطاقه وحصره فى هذا السبب الوحيد من أسباب الاسترقاق ، بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو المن وهو الإعتاق بغير فداء : « فإمّا منّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »(١).

وأوجب على المسلم أن يقبل من الأسير تنجيم فديته حتى يستوفيها على سنة الرفق والسماحة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت إيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم . . . »(٢).

وقد جعل الإعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئات ، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات وإطعام المساكين . وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بوصية الرفق بالآباء والأقربين : « . . . وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً »(٣).

(١) سورة محمد ٤ (٢) النور ٣٣ (٣) النساء ٣٦

وكانت وصية النبى للمسلمين قبيل وفاته « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديثه فى هذا المعنى حتى قال فى بعض تلك الأحاديث « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وتجاوز الإشفاق على الأرقاء من سوء المعاملة إلى الإشفاق عليهم من الكلمة الجارحة فكان عليه السلام يقول : « لا يقل أحدكم عبدى وأمتى . وليقل فتاى وفتاتى وغلامى» .

أما ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل فهو ذنب كفارته العتق . أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » . فإذا قتله فهو يقتل به فى قول أشهر الفقهاء .

وقد فضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرة المشركة . وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل واعترف بأبنائها .

وقد أعتق النبى عليه السلام مملوكه زيداً وزوجه بعقيلة حرة من عقيلات بيته . وتبناه وأقام ابنه أسامة من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين ، وفى الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبى للأرقاء فى ملك يده وفى ملك غيره تفوق سماحة هذه الوصايا على فرط ما فيها من السماحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر ، وإلى آداب جميع العصور ، فكان يؤاكلهم ويلبى دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين ! « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وأكرم ما قال فى هذا الباب – وكله كريم – « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

* * *

هذه الوصايا والمعاملات كانت كلها من فيض الآداب العلوية الرفيعة ولم يكن شىء منها قط من إملاء الضرورات الاجتماعية أو المصالح الاقتصادية ، بل هى ولاشك قد تقررت على الرغم من ضرورات الاجتماع ومصالح الاقتصاد التى كانت غالبة فى تلك الآونة على الجزيرة العربية وعلى غيرها من أرجاء العالم المعمور .

وهى لم تتقرر – بالبداهة – دفعة واحدة فى مستهل الدعوة الإسلامية ولا تقررت كلها أو بعضها قبل إسلام بلال وزملائه من الموالى والإماء . فقد تتابعت الأحكام الإسلامية فى معاملة الرقيق على أثر قيام الحرب بين المسلمين والمشركين ، وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين فى معارك الفريقين .

فمن الخطأ أن يقال إن أحكام الرقيق هى التى جلبت إلى الإسلام من دخل فيه من الموالى والإماء ، أو إنهم سيقوا إلى الدخول فيه طلباً لراحة الجسد وهرباً من مظالم السادة ومتاعب التسخير .

إن يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة فى إقبال بلال وزملائه على الإسلام فهو على التحقيق أثر المثال الرفيع الذى تمثلوه فى معاملة النبى عليه السلام لصحبه ومواليه ولكل ضعيف منتم . إليه . ولم يكن سراً مجهولاً بينهم أن النبى عليه السلام أحسن إلى مولاه زيد بن حارثة فأنساه أباه وذويه ، وجاءه هؤلاء يفتدونه ويعرضون عليه الحرية والعودة إلى

أحضان أهله فآثر صحبة النبى على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفى ظلال وطنه الذى فارقه مكرهاً منذ سنين .

فهذا المثال الرفيع قد كان له ولا ريب أثره البالغ فى تحبيب الإسلام ونبى الإسلام إلى الأرقاء وغير الأرقاء .

ولكنّ طلب الإسلام عند أولئك الأرقاء لم يكن طلباً لراحة الجسد ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

فإننا لا نعرف فى تواريخ العقائد الدينية أن أحداً يقبل على الدين مساومة على الراحة ورفاهة العيش ، ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة العيش قط أعوان عقيدة ناشئة فى عهدها الأول وهى مقدمة على المغامرة والجهاد تتطلب الضحايا وتفرض على الأتباع ألوان الفداء .

وفى حالة بلال وزملائه خاصة لم يكن الإسلام راحة لهم ولا انتقالا من جانب الخطر إلى جانب السلامة والأمان ؛ بل كان على نقيض ذلك انتقالا من جانب السلامة والأمان إلى جانب الخطر الذى لا يدفعه عنهم دافع . لأن العربى يحميه من الضيم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر على حياته وماله إلا فى قتال صريح بعد يأس من الوفاق . ولا حاجة إلى قتال صريح أو غير صريح لا هدار دم العبد المملوك المرهون بمشيئة مولاه ، وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه وإعناته وحرمانه الراحة وضرورات الحياة .

كذلك لم يكن طلب الإسلام عند هؤلاء الأرقاء طلباً للنقلة من رق ثقيل إلى رق خفيف ، أو من سيد قاس إلى سيد رحيم . لأن الإسلام فى مبدأ أمره لم يكن ليخرجهم من ربقة الأسر عند سادتهم الأقوياء ، ولم

يكن العتق جزاء موعوداً لمن يغضب سيده المشرك ويرضى النبى عليه السلام بالدخول فى دينه . فإنما جاء العتق مصادفة واتفاقاً بعد تشديد العذاب على أولئك الضعفاء المساكين ، وقد كان العذاب يقيناً لاشك فيه ، ولم تكن النجاة الا وعداً مأمولاً لم تبد تباشيره للعيان .

فمن الخطأ كما أسلفنا أن يعلل إيمان العبيد والإماء بأحكام الإسلام فى معاملة الأرقاء ، أو بالطمع فى الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فإنما عرفت تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الإسلامية بزمن طويل ، وإنما كان العناء والخطر أول ما يصيب العبد الذى يصبأ عن دين مولاه ، وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، إن سلمت له الحياة .

ومازالت العقائد أكرم على ضمير الإنسان من هذه المساومات التى تلازم الأسواق وتعرض فى صفقات البيع والشراء ، ومازال قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هى البغية منها ، وتهون فى سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد .

وآية ذلك أنه لم يؤمن إنسان قط لغنيمة تخصه ولا تعم سواه . إنه ليساوم فى سوق التجارة على الغنيمة التى تخصه دون غيره ، ولكنه إذا آمن بعقيدة من العقائد التى تتناول الحياة والموت فلابد من غاية تعمه وتعم غيره على السواء ، ولابد من الأمل العام الذى يتخطى مصالح الفرد ومساومات الآحاد .

وبلال حين آمن بالإسلام قد آمن حقاً بالدين الذى ينصف العبيد ، ولكنه قد آمن به على السنة التى ترضى الكرامة الإنسانية لا على سنة المساومة والمصافقة ، أوهو قد آمن به إنساناً كما آمن به السادة الأحرار القادرون على شراء العبيد والإماء .

وأقل ما يقال فى تعليل إسلامه إنه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة ، وانه إيثار للخير الكبير على الخير الصغير ، وإنه استقامة طبع تهتدى إلى الصراط المستقيم . وإنه شوق إلى الحق الذى يريح النفوس وليس بشوق إلى الرفاهة التى تريح الأجساد .

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامه بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب إلى أولئك العبيد والإماء من كل راحة يرجونها بعد الدخول فى الدين الجديد ، أيّا ماكانت الثقة بتحقيق ذلك الرجاء . فى أجل قريب أو بعيد .

وقد غبرت القرون على وصايا الإسلام بالرقيق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وخالفها من خالف ، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الأوامر أو النواهى التى تشرعها العقائد والأديان .

ولكنها ، سواء روعيت أو خولفت . قد كانت كسباً عملياً له أثر من النفع الواقع فى تاريخ بنى الإنسان ، وقد بقى لها هذا الأثر إلى أن بطل الأسر وبطل الرق بشتى ذرائعه ودواعيه ، وارتفعت للحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط فى زمن من الأزمان .

فبعد وصايا الإسلام بألف ومائتى عام ، وفى العصر الذى راحت فيه أوربا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال نزل بمصر فوج من الأسرى اليونان يزيدون على خمسة آلاف وخمسمائة ، ووزعهم الولاة على بيوت السراة وذوى الثراء فى القاهرة والإسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الأسرى إلى بلادهم وإعتاق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال ذويه ، فآثروا البقاء جميعاً فى

البيوت التى نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير أربعمائة أو دون ذاك ، كما جاء فى بيان المندوب الإنجليزى الذى نيط به تنفيذ تلك الشروط .

ومهما يقل القائلون فى تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذى لا ينكر فى هذا المقام ولا ينسى أن أولئك الجند الأوربيين الذين أسرواوهم يعلنون قضية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم المسلمين لو كانت وصايا الإسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام فى الهواء .

فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان الفضائل المثالية فى نشأتها الأولى ، وقد ينشدها المؤمنون بها حباً للمثال الأعلى وطموحاً إلى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن توزن بالميزان وتشخص للعيان .

نشـــأة بـــلال

اتفقت الأقوال على أن بلالا كان من أبناء الحبشة المولدين ، وجاء فى وصفه أنه رضى الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طوالا أجنأ – أى فيه انحناء – كثير الشعر خفيف العارضين »

وهى أوصاف تعهد فى سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد كانوا كثيرين بين الحبشة واليمن من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع خلوصه من فطس الأنف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من السلالتين . وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شيناً على عادة السود ، فنفى الثقات هذا الزعم وأكد نفيهم أنه كان يقيم الأذان وفيه السين والصاد .

ويختلف فى مولده فيقال إنه ولد فى مكة ويقال إنه ولد فى السراة ، وربما رجح القول الأخير لأن السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالا رضى الله عنه رجع إليها حين فكر فى الزواج .

وأرجح الأقوال فى سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث وأربعين سنة ، ثم تختلف الأقوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر سنين .

وأبوه وأمه معروفان : أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حمامة ، وكان ينبز بابن السوداء إذا غضب منه غاضب ، ولعل أمه كانت من إماء السراة أو إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة .

ويحسب بعض الإفرنج الذين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات التوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدينات بالمسيحية من أبناء الحبشة . وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبى عليه السلام

برسالة التوحيد ، وهو حسبان جائز ولكنه بعيد ، لأن الأحباش فى ذلك الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون برسالة التوحيد المحمدية ذلك الترحيب .

ويذكر لبلال أخ يسمى خالداً ويكنى بأبى رويحة ، والأغلب فى الروايات المختلفة أنه كان أخاه فى الإسلام على سنة المؤاخاة بين الصحابة التى سنها عليه السلام ، . وقيل إن له أختاً تسمى غفرة هى مولاة عمر بن عبد الله مولى غفرة المحدث المصرى ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما روى من أخباره .

وكانت نشأة بلال بمكة فى بنى جمح من بطون قريش المشهورة . وفى بنى جمح هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد الثلاثة المختارين من مؤذنى النبى ﷺ ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرو بن أم كلثوم . . ولا يُدرى أمن محض المصادفة أن كانت نشأة اثنين من الثلاثة فى بنى جمح أم كان لهؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والغناء ، وإنما المعروف عن القوم أنهم كانوا أصحاب الازلام والأيسار فى الجاهلية وأنهم كانوا من حزب عبد الدار حين شجر الخلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بنى عبد مناف خلاف قديم .

وإذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور فى بغضه لعبادة الجاهلية وإقباله على الإسلام فذلك هو اطلاعه بين القوم على أسرار الأزلام والأيسار وما يلزمها أحياناً من الغش والتلبيس ، وأن القوم فيهم مجافاة عن الرحمة والنزعة الروحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف – جد النبى عليه السلام – منذ القطيعة الأولى بين الأحزاب القرشية ، وخليقٌ بأمثال هؤلاء ألا يألفهم الضعفاء .

ولم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بنى جمح هؤلاء . فقيل إنه كان عند عقيلة من عقائلهم ، وقيل إنه كان عند أيتام لأبى جهل ، وقيل إنه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده ، واتفقت الأقوال على أن الصديق رضى الله عنه هو الذى استنقذه من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم إياه لدخوله فى الاسلام . فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل بسبع أواق وقيل بتسع أواق . وزعموا أن سيده أراد أن ينغص الصفقة على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! فقال له الصديق : لو أبيتم إلا مائة لاشتريته . . ! ! ويزعم بعض الرواة أن الصديق استبدله بغلام له جلد من عبيده ، وهى رواية يشك فيها كثيراً . لأن الصديق لم يكن ليسلم المشركين رجلا من أتباعه ليستنقذ به رجلا غيره ، وأدنى من ذلك وأشبه بخلائق الصديق رضى الله عنه أنه اشتراه بأمر النبى عليه السلام ، وأنه عليه السلام عرض عليه الشركة فيه ليخفف عنه عبء نفقته ونفقة المستضعفين من أمثاله ، فقال له : لقد أعتقته يارسول الله . وعمل بعد ذلك خازناً له ثم خازناً للنبى ومؤذناً للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر . فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنت ومساءة ، واشتدوا فى ذلك حتى هموا بقتل النبى عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكى بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها . فأشفق النبى الكريم على صحبه وأذن لهم فى الهجرة قبله ، وكان بلال ممن هاجر إلى

المدينة على إيثار منه للبقاء فى مكة . فلما وصل النبى عليه السلام وصاحبه الصديق إلى المدينة كانت « أوبأ أرض الله من الحمى » ولكنها أرحم بهم من جيرة المشركين فى مكة . ونزل الصديق وعامر بن فهيرة وبلال فى بيت واحد فأصيبوا جميعاً بالحمى – ولعلها الملاريا كما رجحنا فى غير هذا الكتاب – فكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته يترنم بصوته الجهورى قائلا :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بفخ وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة
وهل يبدون لى شامة وطفيل

وهى مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوقها بلال فى العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب فى الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقى عند تلك المواطن والمنابت قسوة فى جاهليته وتعذيباً فى إسلامه وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهى حبيبة إليه أثيرة لديه ، وإن لقى الحفاوة والسلامة فى الهجرة منها إلى غيرها .

وقد لزم بلال النبى والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازى والأسفار بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذى اشترك النبى عليه السلام فى بنائه حظ الأذان الأول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين فى حضرة النبى حتى قبض عليه السلام ، وميز بالتقدم عليهم لتقدمه فى الإسلام ولجهارة صوته وحسن أدائه ، وإن كان تقدمه فى الإسلام هو أرجح المزيتين التى استحق بها التفضيل والتكريم .

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يعلم النبى عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حى على الصلاة ! حى على الفلاح ! الصلاة يارسول الله . فإذا خرج رسول الله فرآه بلال ابتدأ فى الإقامة .

وقيل فى خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدحض الشمس ويؤخر الإقامة قليلا . أو ربما أخرها قليلا ، ولكن لا يخرج فى الأذان عن الوقت . وربما ترنم ببعض الشعر وهو صاعد للأذان رثاء لحاله وطلبا للتوبة والرحمة من الله . ومن ذاك أنه سُمع وهو يقول :

ما لبـلال ثـكلـته أمـه وابتل من نضح دم جبينـه

وكان من عمل بلال فى صحبة النبى عليه السلام قبل بناء المصلى أنه كان يحمل العنزة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العَنَزة إحدى عنزات ثلاث أهداها نجاشى الحبشة إلى النبى عليه السلام ، فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلا من على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالا بحمل العنزة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها فى العيدين وفى أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقيل إنه كان يمشى بها بين يدى الصديق فى خلافته ثم جعل سعد القرظ يمشى بها بين يدى عمر وعثمان بوصاة من بلال ، وهى العنزة التى احتفظ بها الولاة يُمشى بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آخى النبى فى المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فآخى بين بلال وخالد أبى رويحة الخثعمى ، وقيل بل بينه وبين أبى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو بين أبى عبيده بن الجراح ، وهو على ما يظهر لبس فى الأسماء ، والأول هو الأرجح لبقاء الصلة بين بلال وأبى رويحة إلى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبى عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم ، فكان يقول له : يابلال ! أفضل عمل المؤمن الجهادفى سبيل الله ، وكان يقول له : عش فقيراً يابلال ومت مع الفقراء ، وربما عهد إليه فى تفريق مايفضل من المال عنده وقال له : انظر حتى تريحنى منه . فيرى بلال القدوة فى سيده ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة .

وقد أرى النبى عليه السلام أنه سمع دف نعلى بلال بين يديه فى الجنة ، فسأله بعد الصلاة : يابلال ! حدثنى بأرجى عمل عملته عندك فى الإسلام منفعة ، فإنى سمعت ليلة دف نعليك بين يدى فى الجنة . . . فلم يذكر بلال زهده ولاجهاده ولاصبره على العذاب ولا أمانته وتسليمه . بل قال : « ماعملت عملا فى الإسلام أرجى عندى منفعة من أنى لاأتطهر طهوراً تاماً فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ماكتب الله لى أن أصلى » .

فكان اصطفاء النبى هذا الصديق المؤمن الأمين اصطفاء المربى الكبير للرجل تثمر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل ، ويُحب للطف محضره كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه ، وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبى عليه لسلام فى طويل صحبته بين الحرب والسلم والإقامة والسفر ، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارساً يحميه كما يحمى الحراس الأمراء والسلاطين ، وإنما كان يستصحبه فى إقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه ، وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد

وحيث لايريد ، فإذا أشتد الهجير فى رحلة من الرحلات أسرع إلى تظليله بثياب الوشى والنبى لايسأله ذلك ، وإذا تهيأوا للقتال ضرب له قبة من أدم يرقب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه ، فلم يفرقهما موقف ضنك ولاموقف خطر ، ولم ينقض يوم إلا جمعتهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ، مالم يكن فى غيبة قصيرة لشأن من شئون الدين الذى لم يكن له شأن سواه .

ولما فتحت مكة أمره النبى عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فأقامه والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك اليوم ولم يسمعوا ماسمعوه فيه ، ودخل النبى الكعبة فكان فى صحبته ثلاثة هم عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد ابن النبى بالتبنى ، وبلال .

ومازال يصحب النبى مجاهداً حتى قبض عليه السلام ، فأقام الأذان بعد وفاته أياماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإباء ، لأنه كان إذا قال فى الأذان « أشهد أن محمداً رسول الله » بكى وبكى معه سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبى ويراه ثم هو بعدُ لايصحبه ولايراه ، وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة ، وآثر الجهاد على فرط حاجته إلى الراحة فى عشرة الستين ، واتفقت أرجح الأقوال على أنه استعفى الصديق من الأذان معه واستأذنه فى الخروج إلى الشام مع المجاهدين . فأذن له بعد إلحاح منه ، واشترك فى معارك لانعلمها على التفصيل ، ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن للخليفة

الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدى لمحاسبة خالد فى مجلس الحكم بين يدى أبى عبيدة .

وأدركته الوفاة فى نحو السبعين – لأنه كان ترب الصديق على أرجح الأقوال – وقيل إنه مات فى طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبى وصحبه كما كان يقول فى ساعات الاحتضار ، فكانت زوجته تعول إلى جانبه وتصيح صيحة الوله ! واحزناه . فيجيبها فى كل مرة بل وافرحاه . غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضى الله عنه معروف يزار .

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذى اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم فى دمشق بعد انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال . بكى عمر وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت اللحى البيض واضطربت الأنفاس التى لاتضطرب فى مقام الروع . ولو بدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمى ينطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولاتولاهم ماتولاهم يومئذ من الوجد والرهبة ، ولكنهم أنصتوا لوحى الغيب حين أصغوا إليه ، وقام فى أفئدتهم أنه صوت جدير بمحضر النبى عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونة من الزمان . فهم إذن فى عليين أو قريب من عليين ، وهم إذن على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبى عليه السلام فى جواره ، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الإلهى

فترجف من الوجد وتتكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة فى عالم الأرواح وآفاق السماء .

رحم الله بلالا إنه كان داعى السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوتها . وقد رفعهم فى ذلك اليوم إلى الأفق الأعلى ؛ إلى الحضرة التى ترتجف فيها الأجساد لأنها غريبة فى ذلك الجوار .

• • •

وحق للمسلمين فى ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبى وصوت بلال حيث كان . فمن سيرة بلال الوجيزة نعلم أنه كان يأوى إلى كفالة النبى فى حياته البيتية كما كان يأوى إليه فى حياته الدينية . وأن أحداً من الصحابة لم يكن يذكرهم بالنبى عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون إليه ، وقد شغل النبى بمعيشته فى بيته كما شغل بعتقه ورزقه وتقويم دينه ، ففى روايات مختلفة أنه تزوج بوصية منه عليه السلام ، وفى إحدى هذه الروايات « إن بنى أبى البكير جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : زوج أختنا فلانا . فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا يارسول الله أنكح أختنا فلانا فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ أين أنتم عنه رجل من أهل الجنة . فأنكحوه » .

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب ، فقد جاء فى رواية قتادة أنه تزوج أعرابية من بنى زهرة ، وجاء فى رواية أخرى أن له زوجة تدعى هنداً الخولانية ، وهى من خولان اليمن لامن خولان الشام ، لأنها كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

ذكره ابن إسحاق فيمن حضر بدراً فقال : وبلال مولى أبى بكر . مولّد من مولدى بنى جمح اشتراه أبو بكر من أمية بن خلف وهو بلال بن رباح لاعقب له .

نعم ولكنه أعقب الميراث الذى يتصل بالأذان فى كل مكان . . . فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال .

إسلام بلال

كل إيمان فهو شئ يتجاوز الفرد الواحد ولا ينحصر فى مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذى يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره فى زمنه أو بعد زمنه ، وليس بإيمان ذلك الذى يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يضحى بالمصلحة فى سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها .

وقد يضحى الإنسان أحيانا بالإيمان فى سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا ينفى أن الإيمان شئ أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل فى هذه الحالة على أن ذلك الانسان يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان .

فالإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفى أن يضحى الناس بمصالحهم فى سبيل إيمانهم – ولو فى بعض الأحيان – لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف .

لأننا نفهم أن ينسى الرجل إيمانه فى سبيل مصلحته فنقول إن المصلحة عزيزة عليه وإن الايمان ضعيف فى نفسه .

ولكننا لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته فى سبيل إيمانه إلا على وجه واحد ، وهو أن الإيمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عزت أو هانت هى شئ غير الايمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل فى حساب الرجل فينسى من أجلها مصالحه الدنيوية . فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد فى زماننا هذا أناس – كأتباع كارل ماركس – يؤمنون

بالمادة وينكرون كل شئ غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحيك بضمير الإنسان إن هى إلا صورة من حياته المادية التى لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للنفى ويجازف بالحياة ويفقدها فى سبيل إيمانه بمعتقده وإنكاره لمعتقد الآخرين . . . وليس بالمعقول أن يفقد الانسان الحياة لأنه يطمح إلى الطعام الهنئ والعيش الرغيد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتى بعده من ينعم بالطعام الهنئ والعيش الرغيد وهو تحت التراب . فإذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسألة عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة بإزاء مصلحة صغيرة ، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه بإزاء قوة تمضى به حيث شاءت ولا يمضى بها حيث شاء ، أو لأنه فى حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الأرقام بإزاء الأرقام .

وقد شوهدت فى الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لاتحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياه وهى خلو من إيمان بحق وثورة على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهى قائمة على منفعة تخص صاحبها ولاتتجاوزه إلى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين – فهى إذن مسألة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد .

فالإيمان أبداً هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة فى سبيل العقيدة قبل الإيمان بها ، لأن المصلحة

موجودة والإيمان غير موجود . ولكنهما متى وجدتا معاً فهما شيئان وليسا بشيء واحد . ويظلان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا فى الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضى الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التى تقرر هذه الحقيقة فى الأذهان .

وقد عنينا بأن نبين مزايا الاسلام فى معاملة الأرقاء . ولكننا عنينا مع ذلك بأن نبين حقيقة أخرى لابد من تبيينها فى هذا المقام ، وهى أن المعاملة نفسها ليست هى سبب دخول الأرقاء فى الإسلام ، وإنما هو « الحق » والشعور بجمال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل ، ولو لقى الأرقاء فى سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والإماء .

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبو بكر وعلى وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الإسلام : أما أبو بكر فمنعه الله بقوته وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فاخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم فى الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبى عليه السلام . إلا بلالا فانه هانت عليه نفسه فى الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء فى طبقات ابن سعد بأسناده ما فحواه : إنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذى يعذبه أمية بن خلف . . .

وكانوا إذا اشتدوا عليه فى العذاب قال أحد . أحد . فيقولون له قل

كما نقول . فيقول : إن لسانى لا يحسنه . وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد فأتى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشتراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء فى الطبقات أن أبا جهل جاءهم بالعشى فجعل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها فهى أول شهيد فى الإسلام . وهانت على بلال نفسه فى الله حتى ملوه فجعلوا فى عنقه حبلا ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبىَ مكة فلم يزدهم فى كلمته التى كان يرددها ولا يمل من تردادها : أحد . أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية فى وقدة الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم إلى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد » .

* * *

هذه صورة بلال رضى الله عنه فى مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود – فضلا عن تحقيق الوعود – فى معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الاسلام فى معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة فى ذلك الحين .

وإن آخر ظن يخطر على بال المرء إذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلمة أنه يرى رجلا وازن بين سوء المعاملة فى الجاهلية وحسن المعاملة فى الإسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل فى الدين الجديد من أجلها .

لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن

سوء معاملتهم إياه قبل الاسلام شيئاً يذكر إلى جانب ذلك العذاب الأليم الذى كان يسامه بعد إسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لا نتظر حتى يسلم سادته فيطمع عندهم فى تلك المعاملة الحسنة ، أو لانتظر حتى يمتنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالإسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل إلى دخول الدين الجديد بين نفر من المغلوبين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

وأعجب شيء أن يخطر للعقل أن الإسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فآمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحميهم الأنفة أن يدخلوه ، وقد دخله الأحرار كما دخله العبيد فى مبدأ التبشير بالدين الجديد .

فإن كانت لبلال وصهيب وأمثالهما مصلحة فى الإيمان بذلك الدين لأنه يسوى بينهم وبين أبى بكر وحمزه وعثمان وعلى والفاروق فما مصلحة هؤلاء فى النزول بأقدارهم إلى حيث يتساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحميه التى تشمخ برؤسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم فى العزة والجاه !

فمن الحق وسكينته فى النفوس فلنبحث فى تعليل الإيمان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة إنسانية فوق مصالح الأفراد ، وإنما يوجد الإيمان حين يوجد للنفس حقٌّ محبوب وباطل مكروه ، ولو ضاعت فى سبيل حب الحق وكراهة الباطل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعت الحياة بغير أمل فى الجزاء .

فلا العبيد آمنوا لأن الإسلام يسوى بينهم وبين الأحرار ولا الأحرار

آمنوا لأن الاسلام يسوى بينهم وبين العبيد . لأن قصارى هذه التسوية أنها مصلحة لفريق من الناس ، ومازال الإيمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين . فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصةٌ قليلة من حياته . أما الإيمان فهو أبداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل فى سبيله المصلحةَ والحياة .

أو لم يوجد فى الوثنية وفى بعض الأديان الكتابية أناسٌ يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون أن الأرباب تفرق بين أقدارهم وأقدار سادتهم فى الحياة وبعد الممات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرها من أرباب الجاهلية وكان لا يرجو نصفةً منها ولا تسوية بينه وبين ساداته المتجبرين عليه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالأله « الأحد » هو الذى سوّأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلى الأعلى هى التى تجرى على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى من ألم العذاب بين يدى سادته القساة .

فكانت الوحدانية هى الكلمة الواحدة التى تلخص بها فضل الدين الجديد على الدين المهجور ، وقد ألهم هذا التلخيص الصادق الوجيز إلهام الايمان الذى يهدى العقل إلى موقع الهدى من أوجز طريق ، فلو أنه كان يقول « الرحيم » فى موضع « الأحد » لجاز أن يقال أن فى الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة ، أو لجاز أن يقال إن الرحمة بدرت إليه فى تلك اللحظة لأنه يشتكى القسوة والعذاب . ولكنه لما ردد كلمة

الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدى إلى الصفة الوحيدة التى لا يدعيها المدعون لأرباب الجاهلية ، كما هدى إلى الصفة الوحيدة التى تجعل الايمان إيماناً بالحق ولا تجعله انتظاراً لرحمة أو غفران أو جزاء .

ولا تريد أن نقول إن الايمان والمصلحة لا يجتمعان ، ولا أن تقول إن المؤمن لا تخطر له المصلحة بحال أو إنها لا شأن لها البتة فى تحول العقائد والعبادات . فان المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الأذهان إلى الإصغاء الذى يتبعه الارتياح والتصديق ، وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة ألوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير العميم .

ولكن الذى نقوله إن المصلحة غير الإيمان وإنهما قد يفترقان كما يتّفقان ، ولو كانت المصلحة هى الايمان لو جدتْ المصلحة ولم تكن هنالك حاجة إلى وجود إيمان على الاطلاق ... كفى أن يسعى الانسان إلى مصلحته دون أن يجعل الايمان سبيلا إليها ، وكفى أن يلتزم المصلحة ولا يتعداها إلى الشعور الذى يحبب إليه الموت . فأما وقد وجد الايمان فى كل زمن من الأزمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لأن يقال إن فرداً من الأفراد قد آمن لأن له مصلحة فى إيمانه ، فإنه يضم إلى المصلحة شيئاً آخر إذن حين يدعمها بالإيمان .

كلا . ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة فى قيظ الصحراء صورة الرجل الذى طلب الخلاص من قسوة السادة . لأن الخلاص هو كل ما يعنيه .

وليست صورته وهو يكرر « الأحد . الأحد » بصورة الرجل الذى

دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين . ولا يعرف للدين الجديد فضلا إلا الرحمة بالعبيد فى الأرض أو فى السماء .

لقد كادوا يقتلونه وهو لا يجيبهم إلى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت . ولعلهم لم يبقوا عليه إلا لشحهم بثمنه أن يضيع عليهم إن قتلوه . ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة . ولم يقتل بلالا ولا عماراً ولا صهيباً لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون ... ولكنهم لاشك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يئسوا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صابئ عن دين الجاهلية . فلم يكن إسلامه سبيل رفق ولا تخفيفاً من عناء . بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحة والحياة .

وأى عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعا قبلوا ماسامهم المشركون أن ينبسوا به — ومنهم عمار بن ياسر — لنعلم أنه كان عذابا يفوق طاقة الانسان .

إن عماراً لم يكن يهاب الموت فى هرمه ، ولكنه ضاق — فى صباه — بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع على رضى الله عنه وقد أناف على التسعين ، وقد شهد المغازى فى عهد النبى وعهود الخلفاء ، وكان عليه السلام يقول : « إن عماراً ملىء إيماناً إلى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين فى الهداية فيوصيهم أن يقتدوا بأبى بكر وعمر وأن يهتدوا بهدى عمار . وهو أيضا لم يجذبه إلى

الإيمان طلب راحة وطمع فى حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية وينضوى إلى جانب على يموت تحت لوائه فى صفين ، وما كان على لو انتصر بمغدق عليه مالا ولا بمطمعه فى عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضى الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عبقرية الإيمان . لأن إيمانه كان ذلك الايمان الخالص الذى يوصف بأنه الإيمان حباً للإيمان لا حباً بما وراءه من رضى أوجزاء . وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد . فيقبل على الموت كراهة للبقاء فى دنيا لا تواتيه على اعتقاده . وليس يقبل على الموت طلباً للجنة كما يقال ، فإن من المؤمنين بالعقائد المادية كما أسلفنا من يموت فى سبيلها ولا أمل له فى حياة بعد الحياة ، وإن الجنة لحبيبة إلى كل إنسان يصدق بها . فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد أن هذا يكره الجنة التى يحبها ذاك ، وإنما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو هبة العقيدة ، وهى قد كانت فى عمار على أقوى ما تكون فى إنسان .

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسعى إلى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبى إلى أن نيف على التسعين ومات تحت لواء على بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الأليم الذى صبر عليه « بلال » وظل صابرًا عليه بغير أمل فى الخلاص القريب ،

وكل طمع فى حسن المعاملة يزول ويبطل فى مثل ذلك العذاب الذى ضاقت به طاقة عمار .

ثم يزول ويبطل لولا إيمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ، ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء .

ثم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار إلى دخول الدين الجديد ، ولكن الذى يفهم من ذلك – أو ينبغى أن يفهم منه – أن المصلحة لم تكن عقبة بين العبيد وبين الأصغاء إلى الدعوة الجديدة ، وأن الأحرار كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل فى صدقها وبطلان ماهم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التى أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هى المراد بالعقيدة لما وجدت العقيدة على الاطلاق ، ولوجدت المصالح كما هى موجودة فى الدنيا بغير اعتقاد على الإطلاق فى شئ من الأشياء .

لقد كانت فى نفس بلال حاجة إلى الولاء والإخلاص، فصدق النبى الكريم لأنه كان أهلا لولائه وإخلاصه ، وكان خليقاً أن يطمئن إليه ويشعر بالسكينة فى الإصغاء إلى قوله والاقتداء بعمله .

وسمع رجلا ينادى بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو فى الذؤابة العليا من بنى هاشم أو فى الذاؤابة العليا من قبائل العرب جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والإيمان ، وكانت دعوة الرجل الحسيب النسيب التى لا مصلحة له فيها هى البرهان الأول على صدق العقيدة . ولولا انعدام المصلحة فى دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب لما أسرع بلال إلى تصديقه والجنوح إليه .

فأما وقد جنح إليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنها أصبحت

مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد أن جنح إليه ومزجه بقلبه وضميره . فصبر فى أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقى على دينهم كما كان . . . وقد صبر على بلاء الجسد لأنه مستريح القلب والضمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ماتصبو إليه الأحلام ويتعلق به الرجاء .

فبلغ من تعظيمه أنه كان نداً لأعظم المسلمين فى حياة النبى عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضى الله عنه يقول « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق يوماً أن أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم . وغضب أبو سفيان وقال لأصحابه : لم أركا ليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الإنصاف فقال لهم : أيها القوم ! إنى والله أرى الذى فى وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على انفسكم . دُعى القوم – إلى الإسلام – ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » .

• • •

جمال هذا الأدب هو الذى يهون فى سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الأليم ، وهو الذى يوحى العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبى فأحبه الأحرار وأصغوا

إليه وصدقوه . . . ولقد تمت أداة العقيدة حين تم الحب والإصغاء والتصديق . فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء إلا قضية يحبونها وداع يصدقونه . وما يكونون يوماً أحوج إلى الإيمان منهم يوم تعز عليهم القضية التى تحب والداعى الذى يصدَّق . فإذا بلغت بهم هذه الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من أحدى غايات ثلاث : فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان يوجود حيث كان .

صفات بلال

كان بلال رجلا على سواء الفطرة .

وآية ذلك أنه كان كما ينبغى أن يكون كل رجل قوى الطبع من بنى جلدته وفى مثل نشأته ، يمر بالحوادث التى مرّ بها و يمارس التجارب التى مارسها .

وقد تقدم فى صفات الموالى الأفريقيين أنهم ينقمون الإساءة على المسىء ويحفظون الحسنة لمن يحسن إليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه .

وهكذا كان بلال رضى الله عنه فى مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بنى جلدته : وهى الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد فى موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدئ فى قسوته ولا بالمكابر فى عناده . إنما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فضل الإصرار على الإيمان بالصواب .

قال ابن الرومى :

إذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارع
من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها
بل العيب أن تدّان دنيا فلا تقضى

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون أثر الإساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضا حيث طلبوه ، فإذا بهم ينحلونه صفاتهم ويعيبونه بمساءتهم ، وينكرون صحبته كما ينكر صحبتهم . ومن ذاك أنّ مشتريًا أراد أن يساوم فيه سيدته «قبل أن يفوتها خيره وتحرم ثمرته» فقالت له متعجبة : وما تصنع به؟ إنه

خبيث . . . وانه . وانه ! إلى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة .

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أوكنود ، وإنما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .

وقد كان أكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان إيمانه القوى بالله ، واخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التى ترتقى إليها محاسن بنى جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع أو ولاء معجب بمن يستحق الإعجاب .

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا والآخرة فى طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجو فى دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوى إلى جواره وينعم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة فى قرين حياتها فتصيح : واحزناه .

وكان هو يجيبها فى سكرات الموت : بل وافرحتاه ! غداً نلقى الأحبة . غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وماكان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم إلا وهى فى جانب منها علاقةٌ بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه .

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه فى معظم حالاتها وكانت لا تخليه من مناكفة فى بعض حالاتها كما يتفق أحياناً فى كل عشرة بين الزوجين وفى كل صلة بين إنسانين ، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء إلا

أن تمسه فى لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده : وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . فاستعظمت يوماً ما يحدثها به عن رسول الله فإذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل محنقًا مقطبًا حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها فى صدقه . ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة : «ماحدثك عنى بلال فقد صدق . بلال لايكذب ، فلا تغضبى بلالا» .

فإذا المولى الأمين هانئٌ قرير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون فى أبصارهم ولا يشكون فى روايته ونقله . ويروون عنه رواية اليقين فى شئون الصلاة والصيام .

ففى صحراء العرب حيث يفىء النهار إلى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون فى مواعيد السحور والإفطار فيقولون : إنا لنرى الفجر قد طلع ، أو يقولون . ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فإذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال ، وليس للشك فى ضوء النهار مكان .

وقد لزمت بلالاً عادة الصدق فى كل كلام يبلّغه المسلمين عن النبى أو يبلغه إليهم فى شأن من عامة الشئون وخاصتها ، فلما رجاه أخوه فى الإسلام – أبو رويحة – أن يسفر له فى زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال : «أنا بلال بن رباح وهذا أخى أبو رويحة. وهو امرؤ

سوء فى الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا . . . »

فزوجوه فكان حسبهم عنده أن يقبل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

وقد كان من ولائه لأبى رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبى رويحة « لا أفارقه أبداً . للأخوة التى كان رسول الله عقد بينه وبينى » .

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء . فكانت أخوة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله . وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه .

* * *

وقد عرف له النبى عليه السلام هذه الخصال التى تتجمع كلها فى صفة الأمانة – وهو هو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس – فأقامه فى موضع الثقة وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ، واستصحبه فى غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العَنَزة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحدٌ من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذى يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذى يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذى كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير فى رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التى قلما كان يركبها سواه عليه السلام ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير

عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال .

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن فى ثراه . فكان بلال هو الذى ذكر واجب الحنان المكلوم فى ذلك الموقف الأليم ، فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء .

* * *

وعلى هذا الحنان فى طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضميرٌ يعرف الإصرار على الرأى كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة .

وربما كا فى الإصرار شىء من عناد بنى جلدته أبناء الحبشة وأبناء السلالة السوداء . إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمد ويفيد وثانيهما يذم ويضير .

فالعناد أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة ، وفى لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى ، ولم نعرف من العناد فى تاريخ بلال إلا أجملَ اللونين وأشبهها بقوة الأسر وخلائق الأمناء .

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب نبيّه كما تقدم فى وصف إسلامه ، ومنه إصراره على ترك الأذان لغيره حين وقر فى نفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص فى الوفاء ، وربما كان منه أصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام حين سأله الخليفة البقاء فقال له فى رواية مشهورة : « إن كنت أعتقتنى لنفسك فاحبسنى ، وإن كنت أعتقتنى لله عز وجل فذرنى أذهب إلى الله عز وجل » وأبى إلا أن يمضى حيث أراد .

ولاشك أن الرحمة بالاعداء أمر لاينتظر من رجل طال عهده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء، فإن رحمة رجل

كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه أما الخلق الذى يستغرب منه حقًا فهو رحمته فى ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط فى الإساءة إليه .

ولهذا لا نستغرب ماروى عن بلال بعد وقعة خيبر وما روى عنه بعد وقعة بدر مع المشركين . ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه .

فلما افتتح النبى حصن القموص بخيبر جىء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها . فأرسلها عليه السلام مع بلال إلى رحله . فمر بهما بلال على القتلى من قومها فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً ولطمت على وجهها . وعلم النبى بما صنع فقال له عاتباً : أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى ؟ فكان عذر بلال الذى اعتذر به جوابه : يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك . وأحببت أن ترى مصارع قومها !

أما فى وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره فى وقعة خيبر .

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة فى صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى، وقد كانا أشد الناس أيذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصيباً من ذلك الإيذاء اللئيم . فما وقعت عينه على أمية حتّى صاح بالمسلمين من حوله : رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا . ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح : لا نجوت إن نجا . لا نجوت إن نجا . حتّى اجتمع حولهم خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعاً فإذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها . قال

عبد الرحمن بن عوف : انج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغنى عنك شيئاً ، ولكن المقاتلين هبروهما بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار .

وقد يزيد فى وضوح العذر لبلال من هذه القصة أن أمية هذا كان من أحق الناس بالبغض وقلة الرحمة . لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التى أقدم عليها شجعان المشركين . فما هو إلا أن سمع بنذير النبى إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذى توعده بالقتل فيه ، فصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين فى غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد ، ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بمجمرة يبخره بها ، وقال له : تجمر يا هذا فانما أنت من النساء .

ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه فى طليعة الناكصين عن القتال ، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع فى ميدان . فانما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن فى عقر داره ، ولم يكن من لدد العقيدة التى يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وكلٍ ولا هيّاب . وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم فى ساعة القصاص ، وكفى لبلال عذراً فى هيجة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبى إياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال :

هنيئاً زادك الرحمن خيراً   لقد أدركت ثأرك يا بلال

وفى غير هذه الهيبة التى تدرك أحلم الناس فى موطن النقمة وحومة

الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطرى التى تبدو منه القسوة وهو لا يعنيها ، وكان فى جملة أحواله مثلا للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع ، فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه فى صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره ، فيطرق ويقول : إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً » وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية ، فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديث النبى عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما يرويه ، ولم يزد فى إخباره عن النبى على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعد الإفطار والصيام .

° ° °

وكان بلال ابن قومه فى خلقين آخرين يعرفان فى بعضهم،قدماء أو محدثين ، وهما فراسة النظر وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد .

أرسله النبى عليه السلام مع رعية السحيمى ليرد له ابنه الذى أسره المسلمون ، فلم يفته وهو يقص نبأه على النبى أن يقول : والله ما رأيت واحداً منهما مستعبرًا إلى صاحبه ! فقال النبى ! ذاك جفاء الأعراب .

ووكل إليه النبى وهو مقبل إلى وادى القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح – وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس . ثم صلى عليه السلام بمن معه وإن أحدهم ليسلت العرق عن جبينه من حر ذلك اليوم ، فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها . ثم التفت إلى بلال فهتف به : مه يا بلال . فبادر بلال معتذراً وهو يقول : بأبى وأمى . قبض نفسى الذى قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام .

وإنما تدل هذه السهوة – وإن لم تتكرر – على إيثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضرة على النبى وصحبه ، وهو حذرٌ كان ولاشك فى نفس بلال شديداً بل أشد من الشديد .

* * * *

وآخر مايروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التى كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أهى من ماله أم من مال المسلمين؟ وهو معرض لا يجيب . فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه . وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ فعند ذلك أجاب خالد : بل من مالى . فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

ذلك آخر ماروى من أعمال بلال فى خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها فى عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة الجريئة التى لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا فى سبيل طاعة أكبر منها وأوجب . فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذى يطاع والأمر الذى تجب له الطاعة وهى طاعة القوى الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة . فكان سيد المطيعين ، ولا يشرّف الإنسان إن لم يكن سيد الآمرين إلا أن يكون سيد المطيعين .

الأذان

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوةٌ تكون من معدن الصلاة وتنم على صوت من أصوات الغيب المحجّب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجد الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما يبدأ الإنسان فى الصلاة من ساعة مسراها إلى سمعه ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليها .

دعوة تلتقى فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية فى كل موعد من مواعد الصلاة ، كأنها نبأ جديد .

الله أكبر . الله أكبر .

تلك هى دعوة الأذان التى يدعو بها المسلمون إلى الصلاة ، وتلك هى الدعوة الحية التى تنطق بالحقيقة الخالدة ولاتومئ إليها ، وتلك هى الحقيقة البسيطة غاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ، لأنها أغنى الحقائق عن التكرار فى الأبد الأبيد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم فى صلاةٍ منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يذكر بها عظمة الله وهى لب لباب الصلوات .

وتنفرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها الأسماع والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعى الذى يهتف بها « إن الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لمحة أو لمحتين ، وتقول كلها إن الحركة صلاة خفية بيد محرك الأشياء ، وإن الصلاة خير من النوم .

وإذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها خفايا الليل فهو وداع متجاوب الأصداء ، كأنه ترجمان تهتف به الأحياء أو تهمس به فى جنح المساء ، وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين إلى سلام الليل وظلال الأسرار والأحلام .

وإنها لتسمع بالليل لم تسمع بالنهار .

تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقظ الأجسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، فإذا هى أشبه صياح بسكينة ، وأقرب ضجيج إلى الخروج بالإنسان من ضجيج الشواغل والشهوات .

حى على الصلاة !

حى على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح ، لأن كل فلاح بغير الإيمان هو الخسار كل الخسار .

* * *

وما يعرف وقع الأذان من شىء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة ومعزل عن العادة والسنة المتبعة ، أوكما يعرف من وقعه فى بداءه الأطفال وبداءه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الإسلام .

فى الطفولة نسمع الأذان ، ولانفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء : ونؤخذ به ونحن لاندرى بم نؤخذ ، ونود لو نساجله ونصعد إليه ونستجيب دعاءه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم كلمة الأمر ونكاد نفهم كلمة الله ، ولكننا نحار فى البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل . . . ثم نقضى السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة

الطفولة بأننا مازلنا حائرين ، وإن سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان .

وفى الذكريات أصداء تكمن فى النفس من بعيد ويلتفت لمرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذى سرى إليه .

إن أبقى هذه الأصداء فى كل ذاكرة لهى صيحة الأذان الأولى التى نبهت إليها آذان الطفولة لأول مرة ، ومازال تبتعد فى وادى الذاكرة ثم تنثنى إليه من بعض ثنياتها القريبة ، فإذا المرء من طفولته الباكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الإسلام فما يلفتهم من شىء من شعائر العبادة الإسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المصريين المحدثين وعاداتهم » إن أصوات الأذان أخاذة جدا ولاسيما فى هدأة الليل .

ويقول جيراردى نرفال فى كتابه سياحة بالمشرق : « إننى لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرخيم الناصع خامرنى شعور من الشجو لايوصف . وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟

فقال : إنه ينادى أن لا إله إلا الله . قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟

فقال : إنه يدعو النيام قائلا : يامن ينام توكل على الحى الذى لاينام . . . »

وأنشأ الكـــــاتب المتصوف « لافكـــــاديوهيرن » La Fcadio Hearn رسالة وجيزة عن المؤذن الأول — أى بلال بن رباح ستأتى ترجمتها بعد هذا الفصل فقال : « إن السائح الذى يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المنائر ، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذى ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة . . . وهو لاشك يستوعب فى قلبه — إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة — كلّ كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها فى نغمات المؤذن الرنانة ، حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد فى سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تتسرب هذه الألوان الزاهية فى صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذى لايزول . ولعله يسمع فى المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرادى نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير : يامن تنام توكل على الحى الذى لاينام . . . . عظات جليلة تعيد إلى الذاكرة تلك الآيات التى ينقشرنها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لاتأخذه سِنة ولانوم » . . . فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبه أن المؤذن الأول — أول من رتل الدعاء إلى الصلاة — كان الخادم المقدس الذى اصطفاه نبى الإسلام لهذه الدعوة ،

بلال بن رباح ، صاحب الضريح الذى يشار إليه للسائح فى ناحية من دمشق حتى هذا اليوم » .

* * *

وقد لمسنا نحن أثر الأذان البالغ فى روع كثير من السائحين والسائحات الذين ينزلون ببلدتنا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بها فى الطريق من السودان وإليه .

فإنهم كانوا يصلون إلى أسوان وقد سمعوا الأذان مرات فى القاهرة والإسكندرية وربما سمعوه فى غيرهما من البلدان الإسلامية ولكنه كان يفاجئهم بجدة لاتبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار – ولاسيما فى أيام الجمعة . وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية فى أذانه ، فكان يخيل إلينا وهم يصغون إليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب يطرق الأسماع فى وقت رتيب ، أو يترقبون طائرا من طوائر الهجرة التى تأتى فى الأوان ولكن كما يأتى كل شىء غريب .

وكان من عادات المؤذنين التى لبثوا يعيدونها فى شهر رمضان إلى عهد قريب أن يدقوا طبول السحور على المنائر العالية فى الهزيع الأخير من الليل . فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة وترددوا فى تبليغ شكواهم إلى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الإسلام ، فلما سأل عنها بعض مثقفيهم وقيل لهم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا : إننا لانشكو من الأذان لأنه لايقلقنا ولايزال يسرى إلينا فى ساعة الفجر كما يسرى الحلم الجميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التى تدق فوق رءوسنا ، وكنا

نحتملها لوعلمنا أنها شعيرة لاتبديل لها . ولكننا علمنا أنها تبدل فى كل بلد إسلامى على حسب عاداته ، وأن المدن الكبرى تستبدل بها طبولا صغيرة تدق على الأبواب : فاسمحوا لنا أن نهدى إلى البلد بعض هذه الطبول .

وكانت هذه الطبول مما يباع فى كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة . لأنها كانت تستخدم فى عهد الدراويش بالسودان ، إما لجمع الجند أو لتنبيه الغافلين أو للتوقيع والتنغيم ، وكانت ملابس الدراويش وأسلحتهم وأدوات معيشتهم مما يبحث عنه السائحون فى أسواق البلدة ، فتبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين ، فيقلقهم ويشوه عندهم جمال الأذان الخفيف على أسماع النيام .

* * *

وقد كانت هذه الطبول وشيكة فى بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان فى دعوة المسلمين إلى الصلاة .

إذ لم يكن الأذان كما تسمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الإسلام فى مكة والمدينة ، وإنما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون إلى الصلاة الجامعة بالنداء يُسمع من قريب ، فلما صرفت القبلةُ إلى الكعبة فكر المسلمون فى دعاء إلى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد .

ومن جملة الروايات التى جاءت فى طبقات ابن سعد وغيرها يُفهم أنهم كانوا قبل أن يؤمر بالأذان ينادى منادى النبى عليه السلام : الصلاة جامعة ! فيجتمع الناس . فلما صرفت القبلة إلى الكعبة تذاكر المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الناقوس وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأى ومنهم عبد الله بن زيد

الخزرجي . . . فلما دخل على أهله فقالوا : ألا نعشيك ؟ قال : لاأذوق طعاماً . فإنى قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة ، ونام فرأى أن رجلاًمرّ وعليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس . فسأله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد أن أبتاعه لكى أضرب به للصلاة لجماعة الناس . فأجابه الرجل : بل أحدثك بخير لكم من ذلك . تقول : الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة حى على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله . ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدةً ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب إلى النبى عليه السلام فقص عليه مارأى فقال له : قم مع بلال فألق عليه ماقيل لك وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبى مناما يشبه ذلك المنام .

وجرى الأمر فى الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن ، وزاد بلال فى أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبى عليه السلام ، ويبقى النداء فى الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يدعون إليها ، وإن كان فى غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف فى صيغة الأذان بين الطوائف الإسلامية جمعاء . . . إلا أن الشيعة يضيفون إليه ، « حى على خير العمل » مع حى على الصلاة وحى على الفلاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلا من أربع مرات .

ولااختلاف كذلك فى جواز التلحين والترجيع فى الأذان مالم يخل

بنطق الكلمات ومخارج الحروف . إلا أن الحنابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف فى بعض الترجيعات .

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحد أذانٌ قبله ولم يسبقه إلى ذلك سابق فى تاريخ الإسلام ، وهو شرف عظيم . لأن محمد بن عبد الله كان إمام المسجد الذى كان مؤذنه بلال بن رباح .

ومن المتفق عليه فى أقوال الصحابه أن بلالا كان محبب الصوت إلى أسماع المسلمين ، وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبى بهم فيزيدهم هذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع .

على أننا نقرأ فى أنباء فتح مكة أن رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة ؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعلو ظهر البيت الذى لم يصعد إليه أحد فى الجاهلية . فهالهم أن يروا « عبداً » يصعد إليه ويجهر بذلك النداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام : ألاترى إلى هذا العبد أين صعد ؟ فلجأ الرجل إلى حكمة المضطر وقال : دعه : فإن يكن الله يكرهه فسيغيره » .

وكان الحارث بن هشام وأبوسفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبى بلالا أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الأذان . فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه مايغيظه ، وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ،

وأنكر أبو سفيان ما سمع أو قيل فى بعض الروايات أنه جمجم قائلا : لاأقول شيئاً . ولو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصا ».

وقبل أن نحيل هذا الإنكار إلى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغى أن نذكر أن ذلك الوصف جاء من المشركين الذين كانوا خلقاء أن ينكروا أول أذان يرتفع فى سماء مكة ولو ترنمت به الملائكة . تجاوبت به سواجع الأطيار، وأنهم سمعوه زعيقًا و «نهيقًا» كما قالوا لأنهم سمعوا شيئًا لايطيقونه ولايستريحون إليه . وكانت بهم عنجهية السادة فى النظر إلى العبيد، وكان لبلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة فى غزواته مع النبى عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول إلى الخشوع ثم إلى ذكر النبى الحبيب ، ورددنا كره المشركين إياه إلى النفرة ثم إلى العنجهية والعداء . فقد بقى شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة الصوت وابتعاد مداه فى أجواز الفضاء ، ولاحاجة بنا إلى العناء فى الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول إن اختيار النبى إياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات - هو الشهادة لصوت المؤذن الأول بالسلامة من النفرة والنشوز المعيب . فما عهد محمد عليه السلام خاصة إلا أنه كان يحمد المنظر الحسن . وكان ينكر كل نكير ويستريح إلى كل جميل .

المؤذن الأول

كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوربية فى أثناء الكتابة عن تاريخ الإسلام. ولكن الذى كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا فى السياسة العامة – كبلال بن رباح – جدُّ قليل، ومن هذا القليل الذى كتب عن بلال خاصة فصلٌ فى اللغة الإنجليزية للأديب القصصى لفكاديو هيرن Lafcadie Hearn الذى عمل حيناً فى الصحافة الأمريكية وقضى زماناً فى جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبنى فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد أن قضى حياته الأدبية كلها هائماً بنفحات الشرق الروحية سواء هبت عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان.

ولاشك أن ترجمة هذا الفصل إلى العربية ترده إلى اللغة التى هى أحق به وأولى. وتعد مناسبةُ نقله إلى العربية سانحةً كل السنوح فى صدد الترجمة لبلال رضى الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه: وهو عدا ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الإنسانى والروح الشعرية والفكاهة الأدبية، ويضيف كثيراً إلى علمنا بأثر الأذان الإسلامى فى نفوس الأدباء الغربيين، ولا سيما الأدباء من طراز هيرن الذين أظمأتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم إلى الرى الروحانى من ينابيع أخرى غير ينابيع أمريكا وأوربا.

وقد مهد هيرن لفصله عن «المؤذن الأول» بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold التى يقول فيها مخاطباً العزة الإلهية:

«لو أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء – فجاءة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير فى سكينة السماء – لما

خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الأرض وفى أغوار الماء. نعم... ولو ذهبت هذه وذهبت الأرض معها لبقيت لك آيات فى أعالى السماء أعظم وأسمى. إذ كل شارقة فوقنا من تلك الشموس التى تشتعل إلى مطلع النهار وتلك الكواكب التى يعود بها الليل كل مساء – هى يارب «دراويشك» التى تدور فى حلقة الذكر حول عرشك الوضّاء».

ثم قال هيرن: «إن السائح الذى يهجع لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من إحدى المنائر على المساجد الجامعة – قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذى ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة، وهو لاشك يستوعب فى قلبه – إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة – كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة، ويتبين مقاطعها وأجزاءها فى نغمات المؤذن الرنانة حيثما أرسل الفجر ضياءه المورّد فى سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم. وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح: يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار، ويسمعه عقيب ذلك حين تتسرب هذه الألوان الزاهية فى صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذى لايزول، ولعله يسمع فى المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه. فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيراردى نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير: يامن تنام توكل على الحى الذى لا ينام... عظات جليلة تعيد

إلى الذاكرة تلك الآيات التى ينقشونها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لاتأخذه سنة ولا نوم » . . . فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول – أول من رتل الدعاء إلى الصلاة – كان الخادم المقدس الذى اصطفاه نبى الإسلام لهذه الدعوة – بلال بن رباح – صاحب الضريح الذى يشار إليه للسائح فى ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال هذا فكان أسود إفريقيا من أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتخذ دين الإسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية وجمال النغم فى ترجيع صوته – ذلك الصوت الذى تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن فى الإسلام منذ أكثر من ألف ومائتى عام .

وقد رجّع بلال أذانه قبل أن ترتسم فى الذهن صورة المنارة الأولى ، وقبل أن يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة أن يرمق المؤذن بعينه منظراً محرماً وهو يطل من علٍ على سقوف المدينة .

واليوم ترتفع إلى السماء منائر لاعداد لها فى كل موطن من مواطن الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد جاهلة بميزان البناء فيخيل إلى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمئذنة « أوجلة » التى رآها فكتور لارجو Largau فى سنة ١٨٧٧ .

أما الكلمات التى يرددها المسلمون فى أنحاء عالم الإسلام من حيث تقوم بنى القرميد التى ترتفع على قبور الصحراء إلى تلك المنائر السحرية الحالمة التى ترتفع على مسجد « أجرا » عند ضريح « تاج محل » بالهند – فهى بنصها وفصها تلك الكلمات التى ترنم بها صوت بلال المكين .

ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان .

فعليه أن يحفظ القرآن وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء ، وأن يكون له صوت واضح جهير ولهجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة ، ولكن شروط الصوت الحسن التى كانت تطلب من المؤذن فى صدر الدعوة المحمدية والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفى به بعد ذلك . وقد روى الشاعر الفارسى الأشهر مصلح الدين السعدى فى كتابه بستان الورد غير نادرة واحدة تدل على آراء أبناء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤذنين وقراء آى الذكر الحكيم .

قال فى بعض تلك النوادر إن مؤذناً فى سنجار تعوّد أن يؤدى الأذان أداء صحيحاً ولكن بصوت كريه إلى كل من سمعوه ، وكان صاحب المسجد أميراً عادلا لايسىء فى عمل من أعماله ، فلم يشأ أن يجرح فؤاد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه فقال له : ياسيدى . إن لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهم خمسة دنانير . فهل لك فى عشرة دنانير تأخذها أنت على أن تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟ . . . فقبل الرجل عرض الأمير وغادر المدينة إلى حيث شاءت له المقادير .

إلا أنه لم يلبث غير قليل حتى قفل إلى الأمير قائلا : لقد ظلمتنى يامولاى إذ قد زينت لى أن أترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير . فإنهم قد عرضوا علىّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن أفارقهم فأبيتها . . . فابتسم الأمير وقال : لا يخدعوك إذن . . فإنى لأحسبهم معطيك خمسين ديناراً أو يزيد على ذلك إذا أصررت على البقاء هناك !

وفى الكتاب نادرة أخرى لاتقل عن هذه فى طرافتها ، يزيدنا فهمها لها أن نذكر أن الأسلوب العربى المأثور فى تلاوة القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف فى التلاوات الدينية . وخلاصة النادرة أن قارئاً من

حفاظ الكتاب كان يجوّد الآيات بصوت غير جيد . فمر به رجل فطن وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لاشيء ! قال الرجل : وفيم إذن عناؤك هذا ؟ قال : حبا لله ! قال الرجل الفطن : حبا لله إذن لا تقرأ يرحمك الله .

* * *

وبدأ بلال حياته عبداً لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف عن نشأته فى الطفولة غير النزر اليسير . ومن وصف سيروليام موير إياه يظهر أنه كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وأنه كان طويلا أجنأ كأنه الجمل ، لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر مفتول الجسد متين الأعصاب .

وقد كان لدعوة محمد الأولى أثر عميق فى قلوب عبيد مكة ، لأن هؤلاء القوم الغرباء فى ربقة العبودية بين أناس غير أهلهم قد تلقوا ولا ريب دعوة النبى إلى الأبوة العليا التى تكلأ الناس جميعاً كما يتلقى الجريح بلسم الشفاء والحزين سلوة العزاء .

ولعل بلالا كان أول من دان بالإسلام من بنى جلدته ، ولذلك قال النبى عنه إنه أول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التى شاعت فى الحبشة باسم الديانة المسيحية فى القرن الرابع فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام .

وماهو إلا أن بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشده وأقساه على هؤلاء العبيد . فقد كانت سنة العرب منذ عهد بعيد أن يحمى الرجل ذوى قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة . فمن سفك دم عربى فهو غير آمن

أن يرتد عليه أهله بالثأر وأن يستتبع ذلك حرباً سجالاً بين العشيرتين إلى زمن طويل . ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الأمان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف . ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتعاورتهم الأيدى بالضرب وتلقوا نذر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ فى شمس الجزيرة العربية لسافعة . فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهى تحت هذا العذاب الذى يضاف إليه عذاب الجوع والظمأ أشد من أن تدفعها عزية أولئك المساكين . . . فمازالوا واحداً بعد واحد يتفوهون بالعبارات التى كانت تملى عليهم سباً لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق مايقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندماً على مافرط منهم فى تلك المحنة النكراء .

ولكن النبى قد استنزل لأولئك المساكين عزاء وافياً بما ذكره القرآن عنهم ، حيث جاء فيه : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .(١)

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظمأ ولا طول التعريض للشمس على بطاح مكة الملتهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثنى عزيمته الحديدية ، فلم يكن له جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه إلا أن يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيراً إلى وحدانية الله الذى ليس له شريك .

هذه الفترة فى حياة بلال أيام دخوله فى الإسلام هى التى اختارها

(١) سورة النحل ١٠٥ ، ١٠٦

الشاعر الفارسى فريد الدين العطار للإشادة بها فى كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالا قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصى من الخشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذى لا إله غيره » .

واتفق ذات يوم – والحبشى المسكين يتلظى من ألم ذاك العذاب – أن عبر به رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان ذاك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبى قحافة ، ويعرف فى التاريخ الإسلامى باسم أبى بكر صديق النبى الحميم وزميله فى ذلك الكهف الذى تقول الرواية إن العناكب نسجت على مدخله خيوطها لتخفى اللاجئين إليه عمن يتعقبونهما ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أى المخلص الوفى ، وكان أبا السيدة عائشة التى قدر لها أن تقترن بالنبى وقدر لأبيها أن يخلف النبى على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أنفق كثيراً من ثروته التى تبلغ أربعين ألف درهم فى شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدى سادتهم من أجل دخولهم فى دين الإسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل أو نساء ، فكان أبو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله فى إعتاق النساء والضعفاء ويقول له : هلا أنفقته فى إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرءون عنك عدوك ؟ وكان أبو بكر يجيبه : كلا . يا أبت . إنما أريد بهم وجه الله .

ويقول الرواة إن هذا البذل السخى فى سبيل التقوى قد أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشنة من شعر المعز الذى يلفق بالسلا .

فلما شهد بلالا فى ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتلك الحال

وأخذ لتوه يساوم أمية بن خلف وأبىّ بن خلف فى ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير .

وقليلا ماكان يخطر على بال أحد من شهود تلك الصفقة ، أن يوماً من الأيام سيأتى على أمية وابنه يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذى ضنا عليه بكل رحمة فلا ينالانها . فما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت له فرصته بعد وقعة بدر الحامية ، فوقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشفى قلبه أن ينظر إليهما وهما يذبحان على مشهد منه ، لأن الإسلام لا يأمر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير .

وقد كان بلال فى الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوجه الله .

وكان بلال رجلا قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهزال فى قصيدة الشاعر الفارسى إلا على معنى الهزال الذى توصف به الطبيعة البشرية بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية أن قال قولته فى السبب الذى بعث أبا بكر إلى شراء الحبشى المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخ التقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسرى مسراها فى البيئة التى عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصريف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر مايلغطون به ويوسع القائلين به تأنيباً وملامة ، وفى ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، ومايغنى عنه ماله إذا

تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الاشقى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، ومالأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » . (١)

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له أن يساهم بنصيب فى نشر دعوة الإسلام .

وتزعم بعض الروايات أن بلالا عاد بعد هجرة النبى فوقع فى أسر قريش فعذبوه وضاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها فى رأى المراجع التى تعتبر حجة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وإنما نلتقى ببلال مرة أخرى بعد عتقه فى المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان .

* * *

ولم يكن الأذان معروفاً فى مستهل الدعوة الإسلامية حين كان المؤمنون فئة قليلة تقيم إلى جوار نبيها ، وإنما كان الأذان صيحة مسموعة ينادى بها المنادى إلى الصلاة الجامعة .

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة وكعبتها . إلا أن بيت المقدس لم يزل له شأن فى المأثورات الإسلامية ولم يزل عزيزاً فى قلوب المسلمين .

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى أن عيسى بن مريم سيقبل عند حلول الساعة إلى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبهت أولئك الذين يزعمون أنهم من أتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟

(١) سورة الليل بأكملها

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب . وفحواه أن النبى حين فرغ من بناء مسجده — الذى يعد على زهادة بنيانه مثالا للأسلوب العربى فى البناء — تبين على الأثر أن دعوة المسلمين إلى الصلاة على النحو الذى اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال المسلمين فى ذلك الحين ! لأنها خلو من ذلك الجلال الذى لاغنى عنه فى إقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية .

وخطر للنبى فى بداءة الأمر أن يتخذ بوقاً للدعوة إلى الصلاة ، ولكنه لم يشأ أن يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان يستخدمها اليهود فى بعض الصلوات .

ثم خطر له أن يتخذ للدعوة ناقوساً يدق فى ساعات معلومات ، ولكنهم لم يجدوا فى المدينة من يصنع الناقوس المطلوب .

وانه ليوشك أن يتخذ للدعوة ناقوراً من الخشب إذ سنحت فكرة الأذان لبعض الصالحين فى رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم انه لقى على مقربة من داره — وهو يسرى فى ضوء القمراء — رجلا طوالا فى ثياب خضر بيده ناقوس جميل ، وبدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه الناقوس . فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأى شىء تريده ؟ فقال له : إنما أشتريه للنبى عليه السلام ليدعو به المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطوال . وكأنه يزداد فى مقاله طولا : كلا . بل أخبرك بما هو أصلح وأجدى . فخير من ذاك أن ينادى مناد بالدعاء إلى الصلاة من سقف المسجد كما أصنع . وانطلق فى ندائه بصوت رنان عجيب

سماوى الجلال يبعث الوجل الأقدس فى فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك الأذان كما يردد اليوم من شاطئ إفريقية الغربي إلى تخوم هندستان .

الله أكبر . .

الله أكبر . .

أشهد أن لا إله إلا الله . .

أشهد أن محمداً رسول الله . .

حى على الصلاة . .

حى على الفلاح . .

لا إله إلا الله .

فهب من رقاده والنغم العجيب يتردد فى أذنيه ، وبادر إلى النبى فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبى كما يسمع الرؤيا الصادقة التى تأتى بالهداية من الله ، وتذكّر تلك الهبة الصوتية النادرة التى خص بها مولاه الوفى بلال ، فأمره أن ينادى إلى الصلاة بتلك الكلمات التى سمعها المسلم الصالح فى منامه ، وكان الليل فى هزيعه الأخير فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وماهو إلا أن طلعت بشائر النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشى الساحر يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد . فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التى تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة فى المدن الإسلامية ، وكان مصعد بلال فى تلك الليلة إلى الشرفة المضاءة بنور الكواكب على سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل ألف ومائتى عام .

* * *

فى خلال تلك القرون جميعاً لم يعرف الإسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان إلى الله .

ولاتزال نغمات الأذان تعلّم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لاعداد لها : وفى المأثورات أنها ستكون علامةً للساعة التى تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدى المنتظر– مسيح الديانة الإسلامية – فيعلن الأذان بصوت جهورى يدوّى فى أنحاء العالم بأسره !

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب فى العالم الإسلامى بدقة يدهش لها السيّاح ويعجبون .

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين فى استجابة داعى الصلاة حتى استخدمت أحيانا فى الإضرار بهم والإغارة عليهم . فاتفق فى نيسابور– تلك المدينة المحببة إلى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار– أن الأذان أعلن لأول مرة غدراً وختلا للإيقاع بمن يستجيبون إليه . إذ حدث فى السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيزخان ، وكان من عادة هذه الجموع التى درجت على الاستئصال والتخريب عادة فريدة بين الأمم فى قسوتها وغدرها ؛ وهى أن يعودوا إلى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع إليها من أهلها مطمئناً إلى جلاء العدو عنها أو فيمن يقبلون على الأنقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الاعلاق منها . فلما عادوا إلى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولى بإقامة الأذان فأقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالمخابئ والزوايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسى حين قال فى وصف هذه الجموع : « إنهم يقصدون إلى إبادة نوع الإنسان وفناء العالم ولايقصدون إلى السيادة أو الغنيمة » .

* * *

إن جو المأثورات – بما يحفه من الأشعة والهالات – ليرن فيه صوت بلال أبداً كما رنّ فى الحلم صوت ذلك الغريب فى الأكسية الخضر منبعثاً من عالم فردوسى إلهى مسربل بالضياء .

وليس فى مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة صوت المؤذن الإفريقى ولأن نقوّم مزاياه الموسيقية التى لاشك فيها ، ولكننا إذا صح لنا أن نستدل بما قيل فى وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة خلافا للنغمة العربية التى تعرف بشىء من الحدة والنعومة .

ولا يعوزنا السبب لأن نشك فى أن أحداً من المشهورين بين أرباب صناعة الغناء فى الجاهلية كان من ذلك العنصر – العربى – الذى وصفه سائح فرنسى فقال : إنه شعب صخاب ، وقد أنبأنا الدكتور بيروق Perron فى كتابه الممتع عن النساء العربيات الذى نشر بالجزائر سنة ١٨٤٨ أن معظمهم كانوا عبيداً وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج ، ولايبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد – ولايزال لأغانيهما بقية مروية – فتاتين حبشيتين .

وتقول الأخبار إنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وان فترات التاريخ العربى لم تخل من عتقاء أو خلاسيين نبغوا فى الشعر أو فى الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذى نظم إحدى المعلقات ورويت له أغان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعنى به عنترة بن شداد .

ومنهم خفاف الشاعر الفارسى ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذى لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة ثأراً لحميه الذى قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجا من غير أكفائها وأقسم لا يهدأن أو يقتل منهم مائة بقتيله . فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح فى قدمه وفسد جرحه فمات . فقيل إن الشنفرى بر بقسمه وهو قتيل .

ويروى عن النبى أنه ود لو شهد عنترة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الفارس الشاعر لدعوته ، إذ يجنح إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحت لواء نبى يبشر بالمساواة .

وطوت روح الإسلام شيئاً فشيئاً قصيد الصحراء الجميل بألوانه الساخنة التى تشبه ألوانها ، وحرارته التى تشبه حرارة رمالها ووقدته التى تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تغنى وإن كفت عن نظم المعلقات ! ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسيين الذين نبغوا فى القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، فسعيد بن مذحج الذى صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وضيعوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الزنجى قد لقى الحظوة من أمراء كثيرين وحكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى أيام هشام . وقد حشا يزيد الثانى فاه دراً فى يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد – أمير الغناء فى عصره – أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وغشى على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلفه اثنى عشر

ألف دينار جائزة واحدة ، ومشى فى جنازته الوليد الثانى هو وأخوه فى ثياب السواد حدادا عليه ، وكان قد مات فى قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء – التى بلغ ثمن القبلة منها أربعين ألف درهم – كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبابة صاحبتها من جوارى المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على أن أصوات الجوارى السود وأساليبهن فى الغناء كان لها سحر ملحوظ فى نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس فى بعض الأحيان . وقد قيل إن إسماعيل بن جامع أعظم المغنين فى عصر الإسلام الذهبى أعطى جارية سوداء أربعة دراهم لينقل عنها نغما غريباً سمعها تترنم به وهى تحمل الجرة على رأسها . ثم وضع فى ذلك النغم دوراً سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال إنه لم يسمع مثله قط فى جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومنزل نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدى – الشاعر الفارسى – أنباء أخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم فى هذا الفن إلى مابعد صدر الإسلام ، ومن تلك الأنباء قصة رواها فى كتابه بستان الورد من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجاز فى رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترنمون فى الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجهل حالهم ولا يعرف

نجواهم ، فلما بلغنا نخل بنى هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت إلى جمل صاحبنا التقى قد أخذه الصوت الساحر فألقى براكبه إلى الأرض وهام فى الصحراء ، فصحت بالرجل : ياهذا ! إن صوت هذا الفتى قد عمل فى الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك » .

وذلك أنه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الإبل إلى المسير والصبر على السفر بألحان الحداء ، وقد روى جنتيوس Gentius معقباً على هذه الواقعة فى ترجمته لبستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخرى أعجب من الأولى فقال : « إن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل فى الصحراء ضاعت منه جميع إبله ، فجاءه عبد زنجى وسأله أن يتشفع له عند مولاه فى ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده إليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه . فقال له صاحب الدار : إن هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده إلى أسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتا جميلا فأقته حاديا لإبلى فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت فى يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعة وضعت عنها أحمالها لفرط مانالها من الإعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » .

ومن النوادر التى تروى فى هذا المعنى وتدل على شأن الحداة فى المشرق – نادرة حكاها جلال الدين فى تاريخه حيث قال إن المنصور أجاز سالما الحادى بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك أن يسقط عن جمله ، فقال سالم : لقد حدوت لهشام فأجازنى بعشرة آلاف ! » .

فما لاشك فيه أن المغنين فى الجاهلية وفى الصدر الأول من الإسلام

كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين . وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوى الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم فى الصناعات الموسيقية ، فلا داعى للشك فى ملكة الغناء عند بلال ولا فى قيام المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح . . . ويبقى أن ننظر هل هو الذى أبدع لحن الأذان الذى مضى عليه المؤذنون من بعده أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحى إليه .

وعلينا أن نذكر « أولا » أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوفى إلا فى الفرط النادر ، وغاية ما بلغوه فى هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والترديد على هوى المغنى أو على هوى السامعين . فتعاد الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه حتى ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات .

ولاتزال هذه النزعة فى الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون Perron حين سأل : أى سائح فى مصر لم يسمع كلمة ياليل تعاد مرة بعد مرة ونصف ساعة أو تزيد ؟

والأغلب أن الأنغام العربية لم تكن لتزيد فى عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهى ما يسمى بالنغم البسيط ويغنى به فى مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء .

وما يسمى بالنغم المركب وهو يتألف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة ، وما يسمى بالخفيف وهو يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار .

ولما كان بلال عبداً وكان ولا ريب فى بعض أوقاته يسوق الإبل فقد

كان على الأرجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط ، ولكنه – بسليقته الإفريقية التى طبع عليها أبناء جلدته – ربما وجد من وقته متسعاً لترديد الأصوات المركبة واستطاع من ثم أن يلقى الأذان فى ألحانه المعروفة .

فلا يخفى أن النغم الذى يسمع فى المنام قلما يثبت فى الذاكرة ، وأن النغم الذى سمعه المسلم الصالح من الطيف الغريب صاحب الثياب الخضر يصعب أن يعلق بذاكرته ويجرى على لسانه وهو يقص رؤيته على النبى (صلوات الله عليه) .

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الأذان وصاغ منه اللحن الذى أوحته إليه سليقته الإفريقية الآبدة فأقره النبى عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم » .

ولاجرم يقره محمد على أسلوب ترتيله وهو الذى كان يقربه إليه ويسأله الرأى فى مهمات الأمور . وقد كان يؤثره على غيره من المؤذنين ، فلم يكن يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال قادر على الدعاء إليها .

* * *

ولزم بلال النبى عن كثب طوال حياته . فكان يوقظ النبى بعد الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى . فإذا اجتمع المصلون بالمسجد اتجهت الأنظار نحو الإفريقى الواقف بالصف الأول ليتلوه فى حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف فى الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الإسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت إليه

أمور أهم وأكبر من الأذان . فكان خازن بيت النبى وأمينه على المال الذى يصل إلى يديه ، وتلقى من النبى مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة فى موكبه الظافر وكان هو الذى أقام الأذان على أعلى مكان فى تلك البنية التى اشتهرت الآن فى أنحاء الكرة الأرضية . وكان هو الداعى إلى الصلاة يوم حضر إلى المدينة ملوك حضرموت للدخول فى الإسلام ، وكان هو الذى يدعو إلى الصلاة حين يحتشد فرسان الإسلام بالصحراء لقتال عابدى الأوثان .

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بغض شديد لأعداء وليه والمحسن إليه لاحاجة بنا فى هذا المقام إلى تفصيلها ، وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبى يوم ذهب معه فى حجة الوداع فظل يحرص على راحته طوال الطريق ويمشى إلى جانبه مظللا إياه بستار فى يده يحميه وهج الظهيرة ، ولعله فى تلك الرحلة قد عبر فى الوادى المقدس تلك الأماكن التى كان سادات قريش يعذبونه هو فى حر شمسها .

ثم توفى محمد « عليه السلام » فسكت الصوتِ العجيب ودعى مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين إلى الصلاة . لأن بلالا عاهد نفسه ألا يؤذن لإمام بعد نبيه ووليه .

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال فى صحبة أبى بكر بالمدينة ، ولكنه ولاريب كان فى موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان له من جلال القدر فى أنظارهم ماخوله أن يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهى رعاية عظمى بين قوم لايزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار أى الخلّص من النسب الخليط .

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالا قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الأول . فلما أراد الخليفة العادل الصارم فى عدله – عمر بن الخطاب – أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذى نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لانسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل ، حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم أنه كان يصحب الجيش وأنه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال .

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبى فى رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه فى معارك الإسلام الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذى تقدمه فى المعيشة ، فزالت أوكادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التى درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الآسيوى لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر إليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفى خلال ذلك كانت العقيدة التى تعذّب بلال من أجلها ودان بها زمناً وهى لاتتجاوز حى أبى طالب – قد جاوزت البرور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس ، وشهدها قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذى لاينام وهى تسلك سبيلها إلى القارة الأفريقية فتضمها إلى فتوح الإسلام . وبهذا أصبحت دعوته الأولى – دعوة الأذان – مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم الهند إلى شواطئ الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء

العربية أبواب كابل . . . ولعل ولداً من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائتى يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما بلغته الفتوح الإسلامية – حتى فى السنة الثانية عشرة للهجرة – لخليق أن يستجيش فى صدر الشيخ الهرم حمية الدين التى عمر بها ملايين جانحيه .

* * *

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى فى حسبانه التقى أن الصوت الذى أسمع نبى الله ودعاه إلى بيت الصلاة لاينبغى أن يسمع بعد فراق مولاه . ولنا أن نتخيله فى مأواه بالشام وأنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذى أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وإنه ليضطر مراراً إلى الإباء والاعتذار لأولئك الذين كانوا يجلونه إجلال القديسين ويودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه .

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل إليه رؤساء القوم أن يسأل بلالا إقامة الأذان تكريماً لمحضر أمير المؤمنين ، فرضى بلال وكان أذانه الأخير .

* * *

لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد فى تلك الأيام غيرةً يوشك ألا تعرف الحدود ، ومن المحقق أن النبأ الذى سرى بينهم مبشراً باستماعهم إلى أذان بلال قد أذكى فى نفوس أهل المدينة الوردية الشذى حميةً مفرحة لانظن أن العالم المسيحى قد شهد لها مثيلا فى غير أيام الصليبيين .

فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوى لاح للأكثرين ولاشك أن الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تكاد أن

تضارع الظفر بسماع النبى عليه السلام . . . وأنها أفخر أحدوثة فى الحياة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والحفدة . وقد يكون فى المدينة من تلقى النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراف ، ولكن الأكثرين الذين تزاحموا فى صمت وخشوع واجفى القلوب مرهفى الآذان لسماع « التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من أن يلم به النسيان . وتزكى روايات العيان هذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار فى تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة الصوت الجهورى تشق حجاب السكون وتتعاقب من حنجرة الشيخ الأفريقى بتلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمر ومن معه وتحدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع لزفراتهم نشيج عال غطى فى المسجد على دعاء الأذان الأخير .

أى فنان موسيقى أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بلال فى ذلك الأذان ، وأن يسمع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟ !

ولاحاجة بنا إلى أن نقول إنها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوطة أو تدوين الأنغام لم يكن معروفا يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل إلى جيل غير تعليق الذاكرة، فليس فى وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقى أو بما تبدل من تلحين بلال للأذان. ولكننا نرجع إلى الظن وقد يغنى فى هذا الباب . ولدينا من الأسباب مايكفى لترجيح بقاء الأصوات نيفاً وألف سنة محفوظة فى الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضاً من النغمات العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان ، وليست غيرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيرة العبريين ، فلا جرم تسنح

لأنغام الأذان فرصة للبقاء فى الذاكرة كالفرصة التى سنحت لأناشيد إسرائيل .

فمن الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأقل نغمات مشابهة للنغمات التى ابتدأ بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل

ولعل مصر التى فتحت وبلال بقيد الحياة – مصر بلد الخلود الذى لا يقبل التبديل – قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل فى العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية . وقد سمعت الأذان من مؤذنين سمعوه من بلال .

ويرضينا أن نعتقد أن بلالا نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع فى مصر الحديثة كما سجله فيلوتوVilloteauوهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم إلى أجزاء وأجزاء مما يقع موقع الغرابة فى تأثيره على مسامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذى سمعه فيلوتو أقرب إلى التفنن من المؤذن الذى سجل لين Lane نغماته فى كتابه عن المصريين المحدثين فإذا بها تنتهى وفى السمع انتظار لبقية تالية . . . ولعلنا نؤثر أن يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الأذان لما فيه من تجزئة النغم التى يألفها العرب وتشبه تلك الخفايا المستغربة فى الأصداء الإفريقية . إلا أن النغم الآخر مع هذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحى إلى معنى العبادة الخالدة التى لانهاية لها والتى هى أبداً فى ابتداء بغير ختام ، كما يوحى إلى صلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هى آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التى مرت بنا – مترجمة من الإنجليزية عن الكاتب الألمعى لفكاديو هيرن – يتبين للقارئ منزعه الأدبى فى الكتابة والتصوير. وهو على الأغلب منزع الخيال والمجاز والعطف على الحياة الشرقية التى تمتزج بتواريخ الروحيات والدينيات على الإجمال، وهو مع تحقيقه فى مراجعة المصادر التى اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لايعيبها سوء النية الذى تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين، وإنما يوقعه فى الخطأ حب المجاز أو الاسترسال فى صقل موضوعه وتجميل صورته، فلا يستغنى هذا المقال الممتع الذى حيى به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصحح فيه من مقاله مايحتاج إلى التصحيح أو الاستدراك.

فمن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضى الله عنه وليس له عقب كما ورد فى ابن هشام نصاً، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات فى كل ماقرأناه عنه.

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخا لبلال من أبويه أو من أحدهما وهو على أرجح الأقوال أخوه فى الإسلام على سنة المؤاخاة التى كان النبى (صلوات الله عيه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين.

غير أن هفوته الظاهرة هى مذهبه فى تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالى فى بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد الأصلاء فإنه يجنح فى كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص فى الأداة الصوتية، أو فى القدرة الفنية عند العربى الأصيل، وأن الموالى والجوارى من السود والأحباش سلموا من هذا النقص فكثر اشتغالهم بفن الغناء فى الحجاز ثم فى غيره من الأقطار الإسلامية.

وظاهر أن هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم فى حديثهم وندائهم كما سُمعوا قبل الإسلام فلا نجدهم قاصرين فى الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع فى جهارة الصوت وقوته إلى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم فى بداوتهم أنها صناعة أنثوية لاتليق بالفارس المقدام ولا بالرجل الكريم ، وأن المنادمة والتسلية بجمال المسمع أو جمال المنظر أدنى إلى عمل النساء منها إلى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم أن يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتى الصيف والشتاء ، وكثيراً ماكان تسيير القوافل بالتجارة ضرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى مابعد أيام الدولة الإسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالى والجوارى أو على المخنثين الذين يتشبهون بالنساء فى المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه وعنهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها فى أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل إرسال الشعر وطلاء الوجه شائعاً بينهم إلى زمن قريب ، بعد أن نقلوه من الأندلس ونقله الأندلسيون عن أهل الصناعة فى مدن الحجاز.

فكثرة المغنين بين الموالى والجوارى إنما ترجع إلى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية فى العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لاينكرونها وهى الحداء والنصيب وما إليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت الإنسانى فى العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم فى البادية مع

القمراء فكانت أصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهى فى الغناء أعسر مكانٍ على امتلاء .

وصوت بلال رضى الله عنه لم يطلب هذا للآذان لأنه عرف قبل ذلك فى أفانين الغناء ، ولعله رعى الإبل وحداها فى بوادى الحجاز أو فى الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الإسلام أو بعد الإسلام ، فإنما عرفت جهارة صوته فى الحرب والسلم وحداء الطريق فاختاره النبى عليه السلام للأذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار .

فهرس

صفحة